

آل محمد

بيت الرئاسة في عشائر شمر الجربا

دراسة في الزعامة العشائرية العراقية في القرن التاسع عشر

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

قد يتبادر إلى الذهن أن دراسة تاريخية امشيرة عربية بدوية لن تخرج عن تسجيل منازعاتها مع الحكومة ومع العشائر الأخرى . ولكن هناك بعض العشائر العربية ذات تاريخ حافل يتضمن المجالات المحلية والدولية على السواء ، وعشائر شمر الجربا^(١) العراقية من هذه العشائر التي يكشف لنا تاريخها عن تفاصيل دقيقة لما كان يجري داخل العشيرة نفسها ، وعمما كان يحدث بينها وبين العشائر الأخرى من صراع وتحالف ، ويكشف لنا تاريخها أيضاً عن تجربة خطيرة وهي هجرتها من شبه الجزيرة العربية إلى العراق وما تبع ذلك من جهود مضنية لتثبيت أقدامها في مواقعها الجديدة . كذلك يكشف لنا تاريخ عشائر شمر الجربا عن نوع من العلاقات الدولية في منطقة المشرق العربي . فلقد اصطدمت هذه العشائر بعنف بحركة الموحدين (الحركة الوهابية) في أواخر القرن الثامن عشر ، وكالفت الغزو الإيراني للعراق في العشرينات من القرن التاسع عشر ، كما تعاونت مع القيادة المصرية في الشام (١٨٣١ — ١٨٣٤) . وإلى جانب هذا وذاك كانت السلطات الإنجليزية المسئولة عن مصالح إنجلترا في العراق تولى عشائر شمر الجربا عناية خاصة لأنها كانت تسيطر على جزء هام من خطوط المواصلات العالمية التي كانت تربط بين الشرق والغرب عبر العراق .

وخلال دراستنا لهذه العشائر سنلقى نظرات على الظروف التي أدت إلى هجرة عشائر الجربا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق ثم سنركز بعض الأنواء على

(١) سميت شمر لأن رجالها كانوا يشمرون عن ساعد الجد خلال الأزمات ، أما الجربا فلقب لقسم من هذه العشيرة التي تضاربت بشأنه الروايات .

الشخصيات الهامة من « آل محمد » وهو البيت الحاكم في تلك العشائر لما كان لها من آثار واضحة في توجيه أمور العراق خلال القرن التاسع عشر .

كان العراق قبل الفتح الإسلامي مهجراً لبعض القبائل العربية ، وقد تغفلت بعضها داخل العراق بينما أقام البعض الآخر على تخومه ، حتى إذا ما فتح المسلمون العراق تحولت معظم تلك العشائر إلى الإسلام وتوالت بعد ذلك الهجرات العربية حتى أصبح العراق على جانب كبير من التكامل من حيث العروبة والإسلام . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العشائر العربية تغطي مساحات واسعة في العراق . ولقد كان للعشائر العربية فضل كبير في أن يحتفظ العراق بطابعه العربي حتى الآن . فالعراق أن العراق كان أكثر البلاد العربية تعرضاً لموجات متتالية من الغزوات والهجرات غير العربية التي كادت أن تغير من ملامحه العربية ، لولا أن توافدت مجموعات من العشائر العربية على العراق بصورة تكاد تكون مستمرة . ولكن نلاحظ — من ناحية أخرى — أن العرب بعد سقوط الدولة الأموية فقدوا الكثير من صفات الزعامة والتفوق خاصة في النصف الثاني من العهد العباسي . فلقد احتكر الفرس والترك الحكم والإدارة خلال ذلك العهد ثم سقط العراق في قبضة المغول في ١٢٥٨م الذين قضوا على الخلافة العباسية هناك .

ولفترة طويلة عاش العراق تحت حكم المغول الأيلخانيين ثم (القره قوينلو والآق قوينلو ومن بعدهم استولى الفرس الصفويون على العراق في ١٥٠٨ وظل في قبضتهم حتى انتزعه منهم الأتراك العثمانيون في ١٥٣٤ ثم استولى عليه الفرس مرة أخرى في ١٦٢١م ولم يسترده الأتراك العثمانيون إلا في ١٦٣٨م ومنذ ذلك التاريخ ظل العراق في إطار الدولة العثمانية تارة تحت الحكم المباشر (١٦٣٨ — ١٧٤٩) ومن (١٨٣١ — ١٩١٤) ، وتارة أخرى تحت حكم عصابات حاكمة من أشهرها ممالك بغداد (١٧٤٩ — ١٨٣١) وآل عبد الجليل في الموصل^(١) وآل آقر أسياب في البصرة^(٢) والأسرات الكردية العديدة^(٣) التي قويت شوكتها خلال القرن

(١) حكمت هذه الأسرة في الموصل من أوائل القرن الثامن عشر حتى حوالي ١٨٣٤م .

(٢) حكمت هذه الأسرة البصرة من ١٥٩٥ إلى ١٦٦٢ .

(٣) من أهمها الأسرة البابانية في السليمانية والصورانية في راوندوز .

السابع عشر . ولكن استطاعت الحكومة أن تصفيها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) ولعل تقسيم العثمانيين للعراق إلى أربع ولايات كبرى : بغداد — البصرة — الموصل وشهر زور (كردستان) كان من العوامل الرئيسية التي قوت من جانب هذه العصيات المحلية ، ولكنها مع هذا كانت لا تفكر في الانفصال الكامل عن دولة الخلافة العثمانية رغم المعارك الدموية التي كانت تقع بين تلك الإمارات من جهة وجيوش السلطان من جهة أخرى .

ونظرة سريعة على تاريخ العراق تؤكد لنا أن العراق عاش معظم الفترة الواقعة بين سقوط الخلافة العباسية والاحتلال الإنجليزي له خلال الحرب العالمية الأولى تحت حكومات غير عربية حجت عن العرب الناصب القليدية الكبرى . فزادت أحوال العرب تهم قرأ كما زادت سرعة انحذارهم نحو تقاليد الجاهلية الأولى ولم يصممها من العودة الكاملة إلى تلك الجاهلية الأولى سوى احتفاظها بالاسلام ديناً وبالعروبة كياناً ولقد ظلت تلك العشائر معتزة بعروبيتها رغم التفوق الحضارى الذى كان لدى الفرس والترك . وكان لهذا الاعتزاز بالعروبة قيمة كبرى فى الحفاظ على العراق عربياً حتى الآن .

وفى الغالب كانت العشائر العربية فى العراق خصوصاً النازلة قرب نهر الفرات على اتصال بأصولها فى شبه الجزيرة العربية . فكانت عشائر بادية العراق تمثل حلقة بين العشائر العربية التى استقرت فى ريف العراق والعشائر البدوية فى شبه الجزيرة العربية . وكانت هجرة العشائر العربية من شبه الجزيرة العربية تقع فى فترات متطاولة فكانت تملأ الفراغ الذى كان يحدث فى العراق بسبب الاحتياجات الحربية ، أو الحروب المدمرة ، أو بسبب الأوبئة التى كانت تقضى على أعداد كبيرة من سكان العراق . وكانت بعض عشائر شمر من بين العشائر العديدة التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى العراق منذ القرن السابع عشر الميلادى . فتحدثنا الراجع عن مصادمات عديدة بين شمر وولاية بغداد العثمانيين فى ١٦٩٥/١٧٠٦ . وقد دخلت شمر فى حلف مع عدد من كبريات عشائر العراق مثل المنتفق والحزاعل وزبيد

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . دار الكتاب العربى . القاهرة ١٩٦٨
(الفصل الثالث عبارة عن دراسة للأطرووف التى أدت إلى تصفيها) .

ضد حسن باشا والى بغداد (١٧٠٤ - ١٧٢٣) ^(١). ودارت معارك عنيفة جداً بين الطرفين استطاع خلالها حسن باشا أن يثبت تفوقه العسكري على تلك العشائر ^(٢) ولم نسمع عن تمردات لعشائر شمر حتى توفي حسن باشا في ١٧٢٣ . فتجددت تمرداتها ^(٣) في وقت كان فيه نادرشاه يغزو العراق ، الأمر الذى شغل أحمد باشا (والى بغداد ١٧٢٣ - ١٧٤٧) عن الالتفاف إلى إخماد تمردات شمر . ولا شك أن شمر بتمرداتها هذه لم تقدر خطورة عملها على مستقبل العراق في تلك الظروف ، ومن ناحية أخرى فإننا نعتقد أن كراهية شمر للأتراك العثمانيين حكام العراق كانت على قدر المساواة مع كراهيتهم للفرس (الطامعين في السيطرة على العراق) . فلقد كان هدف هذه العشائر هو التخلص من أى حكم أعجمى وتخليص نفسها من الالتزامات التى كانت تفرضها الحكومة على العشائر .

كانت شمر — شأنها شأن العشائر الكبرى — عرضة لأن تنفصل عنها بعض أجزائها كلما تزايدت أعدادها أو طرأت ظروف سياسية أو اقتصادية تدعو إلى انفصال جزء منها عن جسم العشيرة . ولقد انقسمت شمر فعلاً إلى أقسام عديدة استطاع بعضها أن يستقر في مناطق محددة مثل « شمر طوقة » التى استقرت في ريف العراق ، كما أن بعضها ظل متقلداً على عادة العشائر البدوية مثل « شمر الجربا » التى كانت من أشد تلك العشائر بدواة . ورغم بداوتها الشديدة هذه فقد لعبت شمر الجربا دوراً كبيراً في تاريخ شبه الجزيرة العربية وفي تاريخ العراق .

ومما لا شك فيه أن الزعامات تلعب دوراً رئيسياً في توجيه تاريخ المجتمعات العشائرية . وهذا ما نلاحظه عند تتبع العشائر بصفة عامة أو شمر الجربا بصفة خاصة ولقد كان من المألوف أن يكون هناك « بيت » معين يخرج منه شيوخ العشيرة ، وهو ما يعرف باسم « بيت الرئاسة » . وكان « آل محمد » هم بيت الرئاسة في

(١) كان حسن باشا من الوجهة الرسمية والياً على بغداد ولكن امتدت سيطوته إلى معظم العراق وهو الذى كوّن جيشاً من المالك الذين استطاعوا الاستعداد بالحكم بعد وفاة أحمد باشا ابن حسن باشا في ١٧٤٧ واستمروا في الحكم إلى ١٨٣١ م .

(٢) عباس الزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٣ ج ٥ ، ص ١٣٩ / ١٦٩ / ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

شمر الجربا . ولقد كان لهذا البيت تاريخ حافل عندما وقعت شبه الجزيرة العربية عند مفترق الطرق بعد اشتداد حركة اللوحدين (الحركة الوهاية) بزعامه آل سعود الذين جعلوا من هذه الحركة تياراً جارفاً . فقد دعا الموحدون العشائر إلى نبذ التقاليد البدوية الجاهلية . وكان من لا يقبل تلك المبادئ يعتبر — في نظرهم — كمن كفر بالإسلام . وكان من أهم الموضوعات التي كان من المستحيل أن يلتقي عندها الطرفان موضوع « الغزو »^(١) فقد كان من عادة العشائر العربية أن تقوم بغزو العشائر الأخرى وكان شباب العشائر يفخرون بتلك العمليات العدوانية ، بل إن « الغزو » كان كفيلاً بأن يعيد العشائر العربية إلى ما كانت عليه من صراع بدائي اشتهرت به قبل الإسلام . ومن ثم كان الغزو يقتنافي مع فكرة الدولة الإسلامية ، كما كان يتنافى مع الاستقرار والأمن اللذين هما مفتاح التقدم والتطور ، ولكن في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان من المستبعد أن تنبذ العشائر فكرة الغزو ، حيث أن تلك العشائر ظلت قرون طويلة وهي تمارس هذه التقاليد البدائية وتعتز بها ولهذا كان من العسير على عشائر بدوية — مثل شمر الجربا — أن تقبل عن طيب خاطر الأفكار والمبادئ التي دعا إليها اللوحدون وعلى رأسها الكف عن « الغزو » .

ولهذا كان لابد من وقوع صراع دموي مرير بين عشائر شمر واللوحدين ، وكان على رأس هذه العشائر حينذاك « مطلق بن محمد » بينما كان سعود بن عبد العزيز على رأس اللوحدين . وكل منهما كان صعب المراس . وأصبح على « مطلق بن محمد » أن يتخذ طريقاً من الطرق الثلاثة التالية :

١ — أن يقاتل حتى ينتصر على آل سعود ، ولكن بينما كان القتال ضرورة ملحة كان النصر بعيد الاحتمال أمام شمر الجربا لأن هذه العشائر لم تكن قادرة على الصمود في وجه حركة اللوحدين أو حتى خفض شوكتها ، لافتقار العشائر الشمرية إلى الفكرة القومية وإلى التنظيم الذي اشتهر به اللوحدون في أيامهم الأولى .

٢ — أن يقبل « مطلق بن محمد » خضوع عشائره للوحدين ولكن هذه العشائر الشمرية كانت شديدة البداوة ترفض الخضوع بإياه وقسم .

(١) عباس الزاوي : عشائر العراق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

٣ — أن تغادر عشائر شمر الجربا نجداً بعيداً عن متناول سيوف الموحدين ، وهذا قرار ليس من اليسير على شيخ العشيرة أن يتخذه إلا تحت ظروف قاسية .

جرب « مطلق بن حمد » القتال (١٧٩١) فإذا بتيار الموحدين جارفاً ، ولما يتقن « مطلق » أن الإحتكام إلى السيف سيعود عليه بالحسران آثران يجمع جموعه مولياً وجهة شطر العراق الذي كان مهجراً طيباً حيث كانت فيه عشائر عديدة شمرية سبقت « الجربا » إليه^(١).

وبما ساعد على اتجاه « مطلق بن حمد » إلى العراق ، أن المالك — حكام العراق — كانوا يرحبون بعقد مثل هذه العشائر وذلك لكي يستخدمها المالك في صد هجمات الموحدين على العراق وأيضاً في شن حملات على الموحدين في قلب شبه الجزيرة العربية ، إذ أن جيش المالك كان مؤلفاً من الفرسان الثقلي العدة والعتاد ، ولم يكن مثل هؤلاء الفرسان بقادرين على التصدي لقوات الموحدين الخفيفة الحركة . هذا فضلاً عن أنه لم يكن في استطاعة الفارس المملوكي أن يحارب في الصحراء . فغرب الصحراء وقاتل العشائر له أسلوبه الخاص . ومن ثم كانت العشائر هي خير سلاح يمكن إستخدامه ضد الموحدين ، وبخاصة إذا كانت تلك العشائر مواتورة منهم .

ومن ناحية أخرى ، كان والى العراق (سليمان باشا الكبير)^(١) يعد العدة لشن حملة كبيرة ضد الموحدين في قلب شبه الجزيرة العربية ، حيث أن سليم الثالث — السلطان العثماني — كان يلح عليه في إرسال حملة كبيرة ضدهم . وكان اشتراك عشائر شمر الجربا في مثل هذه الحملة ضد الموحدين يعطى فرصاً أوسع لنجاحها ، لما كان لتلك العشائر من خبرات في قتالهم . فضلاً عن أنها كانت كبيرة العدد وشديدة الكراهية للموحدين وتبحث عن فرصة لتثار لنفسها منهم^(٢) ، وفعلت اشتراك شمر الجربا في الحملة الكبيرة التي أعدها سليمان باشا الكبير والتي تولى كتحداه « علي بك » قيادتها ، وكانت تضم قوات مملوكية إلى جانب القوات المشائرية .

(١) عباس الزاوي : عشائر العراق ، بغداد ج ١ ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) حكم ص ١٧٧٩ — ١٨٠٢ .

(٣) عباس الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ١٤٤ .

زحفت الحملة من العراق إلى الإحساء ، وهناك تصدت لها قوات الموحدين ، فدارت معركة حامية سرعان ما تحولت إلى هزيمة قاسية كادت أن تصبح مذبحة لولا ثبات قوات العشائر . وخلال هذه المعركة سقط « مطلق بن محمد » قتيلا عام (١٨٩٨/١٢١٣) واضطرت بقايا قوات الحملة إلى التقهقر من الإحساء إلى العراق^(١) .

لقد كانت الضربة التي وجهها الموحدون إلى شمر الجربا قاسية وأصبحت المشيرة في حاجة إلى زعامة قوية تأخذ بيدها في هذه الحقبة . وكان في العراق حينذاك شخصية شميرية ذات نفوذ ، ونعني بذلك « إبراهيم بك الشمري » الذي آل على نفسه أن يعيد إلى العشيرة قوتها وتماسكها ، ووجد « إبراهيم بك الشمري » في الشيخ « فارس » من « آل محمد »^(٢) القائد الذي يستطيع أن يتحمل المسئولية بعد مصرع « مطلق بن محمد » .

كان « الشيخ فارس » في نجد حينذاك ، فاستقدمه « إبراهيم الشمري » إلى العراق فلبى الشيخ النداء ، وشد رحاله إلى هناك وتولى مشيخة شمر الجربا^(٣) ، وكان طبيعياً أن يكرس جهوده في تقوية مكانة عشائره عن طريق التعاون مع القوى المناهضة للموحدون أشد أعداء شمر الجربا ، وكانت حكومة العراق تمد حينذاك قوات لتوجيه ضربات إلى العشائر التي تعاونت أو مالت إلى الموحدين^(٤) ، ولهذا وضع « فارس » سيفه في خدمة هذا الغرض ، كما شارك في الحملة الجديدة التي كانت تعدها

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٥ ؛ لقد كان مطلق بن محمد عنيداً في كراهيته للموحدين فيقول صاحب مطالع السعود أنه سار من العراق إلى الشام وتوجه إلى أحمد باشا الجزائر بجح ، وبعد رجوعه من الحج « رأى ذلك الضلال المبين الذين كان عليه الوهابيون . . . رجع وقد عاهد الله على أن لا يرجع عن الجهاد والقتال مع الوهابيين إلى أن يموت » انظر مختصر مطالع السعود ، ص ٢٤ .

(٢) البيت الحاكم في شمر الجربا .

(٣) عباس الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٤) مثل عشائر العبيد التي كانت من كبريات عشائر العراق .

الحكومة ضد الموحدين (١٧٩٨ م) ^(١) .

ولكن هذه الحملة الجديدة لم تستطع إحراز نصر ما على الموحدين ، بل توالى تهوق للموحدين على الحملات الموجهة ضدهم من العراق ، مما أدى إلى أن يتوسع الموحدون في نطاق عملياتهم فشرعوا في مهاجمة العشائر النازلة غربي نهر الفرات وبلغت تلك الحملات ذروة قوتها عندما هاجم الموحدون مدينة كربلاء (١٨٠١) ونهبوها وخرّبوا مرقد الإمام الحسين بن علي وامتدت أيديهم إلى مساكن المدينة ، وأدى ذلك إلى إرتفاع هذه المشكلة إلى مستويات عالية بسرعة وخطورة .

فقد كان الشيعة ينظرون إلى مرقد « الحسين بن علي » نظرة تقديس ، وكان لذلك الهجوم على مرقد صدى سيئاً للغاية في مختلف الأوساط الإيرانية ، وجاء هذا الحادث في وقت كان فيه « فتح علي » (شاه إيران) ^(٢) يتبع سياسة نشطة في المجالات الدولية والإسلامية والمحلية متطلماً بقوة نحو السيطرة على العراق تحت ستار الأهداف المذهبية الشيعية لتحقيق أهداف اقتصادية ، وكان سليمان باشا الكبير (والي العراق حينذاك) يدرك هذه الأهداف ، كما أن الباب العالي العثماني ما كان ليقبل ذلك التدخل الإيراني في أمور العراق ، كما كان لا يقبل أن يقال إن الحكومة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن العراق ضد الموحدين ^(٣) .

وعلى هذا النحو أصبح من الضروري أن يبحث سليمان باشا الكبير بحملة جديدة ضد الموحدين ، لينج عن العراق هجماتهم ، وليستعيد ثقة السلطان به ، وليدرك خطراً التدخل الإيراني في أمور العراق . ومعنى هذا أن سليمان باشا أصبح أكثر حاجة إلى القوى العشائرية عن ذي قبل . ولكن توفي سليمان باشا الكبير في عام ١٨٠٢

(١) ع . الزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) حكم إيران من ١٧٩٧ - ١٨٣٤ .

(٣) هـ . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٢ ص ٢١٥ - ٢١٦ ، عباس الزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٤٤ ، رسول الكركوكي ، دوحة الوزراء ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وجاء بعده في حكم ولاية بغداد « على باشا » الذي كان قد سبق له أن تولى حملات قاشة ضد الموحدين . وعلى أى حال أصبح على « على باشا » أن يعيد تشكيل قواته وأن يرسل حملة كبيرة ضدهم . وكان من الطبيعي أن يعول « على باشا » على الشيخ فارس ورجاله من مقاتلي شمر الجربا . وفعلا شاركت شمر الجربا في جهود « على باشا » العسكرية ضد الموحدين ، ولكن دون أن تصل تلك الجهود إلى نتيجة إيجابية بل على العكس تزايدت هجمات الموحدين على العراق ، حتى لقد فضل الشيخ فارس أن يبحث لعشائره عن مراعي جديدة بعيدة عن متناول سيوف الموحدين .

قاد « الشيخ فارس » عشائره إلى الجزيرة في شمال العراق لعل العيش يصفو لها هناك . ولكن وصول هذه العشائر الشمرية إلى الجزيرة كان في حد ذاته خطراً على العشائر الأخرى النازلة هناك . ولهذا كان تاريخ شمر الجربا — منذ ذهابها إلى شمال العراق — عبارة عن سلسلة من الصراع مع عشائر العبيد والمقييل . وحيث أن زعماء عشائر العبيد كانوا ميالين إلى الموحدين فما لا شك فيه أن ذلك كان من العوامل الرئيسية التي عمقت البغضاء بين شمر الجربا والعبيد . ولعل هذا يفسر لنا عنف الحملات التي كان يشنها الشيخ فارس على عشائر العبيد^(١) . ولقد كسب « الشيخ فارس » من وراء ذلك ثقة « على باشا » وإلى بغداد ، حيث أن الأخير كان شديد الكراهية لشيوخ العبيد بسبب ميول زعمائهم للموحدين . بل أصبح « على باشا » يخشى من أن يقوم الموحدون — بالتعاون مع أعوانهم في العراق — بانقلاب يطيح بحكومته . ولهذا كان الرجل مستعداً لأن يقدم على أى عمل يخلصه من تلك الأخطار التي كانت تحيط به ، حتى أنه لم يتورع عن إغتيال إثنين من زعماء العبيد هما « محمد » وأخيه « عبد العزيز الشاوي »^(٢) .

ولكن سياسات العراق حينذاك كانت تختلف باختلاف الولاة وبميوهم ولهذا

(١) غ . الزاوي ، عشائر العراق ، ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٢) ذكر صاحب مطالع السمود أن مقتلهما كان بسبب ميولهما الوهابية ، انظر مختصر مطالع السمود ، ص ٣٠ ، بينما لم يتعرض « جودت » في تاريخه لهذا السبب عندما تعرض لهذه المشكلة ، تاريخ جودت ، ٧ ، ص ١٩٩ .

حدث تبدل في السياسة بعد مصرع « على باشا » في ١٨٠٧ . فقد حل محله في ولاية بغداد سليمان باشا الصغير^(١) الذي كان ميالاً للموحدين . كذلك نجد والى بغداد « سعيد باشا » (١٨١٣ - ١٨١٦) . يمتد على عشائر العبيد ويضع أمور البلاد في يد أحد شيوخ هذه العشائر وهو قاسم الشاوي . وحيث أن عشائر العبيد كانت شديدة العداء لعشائر شمر الجربا ، فقد أدى ذلك إلى أن تفقد هــ هذه الأخيرة تلك المسكنة الكبيرة التي كانت تحتلها زمن سليمان باشا الكبير وعلى باشا .

ومما جعل الأمور أمام عشائر شمر الجربا أكثر تعقيداً أنها فقدت ب وفاة شيخها الجرب « فارس » الزعيم الذي يستطيع أن يواجه تلك الظروف القاسية . وقد تولى الشيخة بعده « بنية بن قرينص » الذي أصبح عليه أن يواجه حلفاء كبيراً تشكل ضده . وكان هذا الحلف مكوناً من عشائر المتفق والحزاعلي والروله والعقيل ، بل انضمت إليه عشائر العبيد وقوات والى سعيد باشا . ويبدو أن هذا الحلف كان قد عقد العزم على توجيه ضربة ساحقة لعشائر شمر الجربا (١٨١٦ / ١٢٣١) ولم يكن أمام « بنية بن قرينص » إلا أن يقرع السيف بالسيف . فكان أن دارت معركة كبيرة في أراضي ملوم . وانجلى عن هزيمة شمر الجربا ومصرع « بنية » نفسه .

ولما كان رجال « شمر الجربا » يدركون دقة موقفهم ويعنون بأن يكون شيخهم مقداماً جريئاً قادراً على أن يقود العشيرة وسط أعداء عديدين فقد وقع اختيارهم على « صفوق بن الشيخ فارس »^(٢) . حقيقة كان تاريخ حياة شيوخ شمر الجربا سلسلة من الكفاح من أجل الحياة ، إلا أن تاريخ حياة صفوق بالذات كان مليئاً بالأحداث الجلى . ولقد كان صفوق^(٣) منذ شبابه جريئاً قوى الشكيمة ، مولماً بالخطاطر والغزو ، عزمه من حديد ، وفي عيذه بريق حاد يؤكده قدرته على الإصرار وعلى تحقيق الأهداف .

(١) حكم من ١٨٠٧ - ١٨١٠ .

(٢) رسول حاوي الكركوكي ، دوحة الوزراء ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٣) كان عوده متناسقاً إلا أنه كان ممتلىء الجسم نوعاً ما مما كان يعطيه شكلاً تركيياً .

وقد امتدت مشيخة صفوق^(١) من ١٨١٦ إلى ١٨٤٣ . وتعتبر هذه الفترة من أدق فترات تاريخ المشرق العربي ، كما عاصر صفوق مجموعة من أهم الشخصيات التاريخية التي لعبت أدواراً خطيرة في المنطقة . فقد تولى حكم العراق ابتداء من ١٨١٧ والي داود باشا^(٢) الذي كان يسعى إلى توحيد العراق تحت حكمه وإلى تجديد شباب العراق حتى ولو كان ذلك رغم أنف السلطان العثماني . وكان على عرش السلطة العثمانية حينذاك « محمود الثاني » (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذي كان مصمماً على أن يعيد حكمه المباشر إلى مختلف ولايات الدولة العثمانية حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة العسكرية ضد الولاة المتغلبين من أمثال داود باشا في بغداد ومحمد علي باشا في القاهرة ، ويوسف القره منلى في طرابلس الغرب . وعاصر صفوق أيضاً « فتح علي » شاه فارس الذي كان يبذل — هو الآخر — كل جهده من أجل تجديد قوة بلاده لعله يتمكن من انتزاع العراق من المملطنة العثمانية .

وعاصر صفوق كذلك بداية الفترة التي استعاد خلالها طريقا العراق ومصر — بين الشرق والغرب — بعض أهميتها كخطوط مواصلات سريعة حديثة عالمية ،

(١) كان لصفوق قصة حب كبيرة . فقد حدث أن شاهد في يوم من الأيام ، وهو لا يزال في فتوة الشباب — فتاة بهرته يجالها وهي عمشة بنت شيخ عشارطى . ولقد سميت كذلك منماً للحسد على عادة العرب . وكانت الفتاة ذات سمرة خرية أخاذه ، وكانت ذات عينين خالفتين لماحتين ساحرتين . فشغف ، وأصر على الإقتران بها . ولكن أبوها رفض أن يزوجه إياها ، فما كان من صفوق إلا أن دبر خطة لإختطافها ونفذها بنجاح . وكانت مثل هذه الجرأة كفيلة بأن تشعل نيران قتال مرير بين المشيرتين . لولا أن تدارك الأمر عقلاء القوم ، وتغلبت المحكمة على التهور خاصة وأن طلى من بنى عمومة شمر . ووافق شيخ طلى على أن يتزوج صفوق من إبنته ، وزفت إليه لتصبح بعد ذلك سيدة شمر الأولى . وكانت عمشة تزين بكميات كبيرة من الذهب تضعها حول رقبتها وعلى صدرها . وكان يتدلى قرط ذهبي من أذنها حتى خصرها ، كما ثبت قطعة ذهبية أخرى على أنفها كانت تتدلى على فمها حتى تغطيه فتضطرب إلى إزاحتها بيدها عندما تتناول طعامها . وكانت عندما تبخر في مشيتها تسمع أصوات رنين الذهب بوضوح . انظر :

H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1849, vol. I, pp. 100-102

(٢) انظر عبد العزيز نوار ، داود باشا والى بغداد ، المكتبة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

وذلك بعض اختراع الباخرة والقاطرة الحديدية وظهور مشروعات لاستخدامهما في العراق .

ذلك هو العصر الذي عاشه صفوق ، وهو عصر مليء بالأزمات والتطورات المريعة . وزاد من دقة موقف صفوق — في سنوات مشيخته الأولى — أنه تولى هذه المشيخة بعد تلك الهزعة المريعة التي منيت بها عشائره . حقيقة سقط سعيد باشا — وإلى بغداد — بعد ذلك بوقت قصير جداً فزال بسقوطه خصماً شديداً لشمر الجربا ، ولكن الوالي الذي جاء بعده ، وهو داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) ، كان على جانب كبير من النشاط وصاحب آمال واسعة . وكان معنياً كل العناية في أوائل أيام حكمه أن يثبت أقدامه في حكم العراق . وكان هذا يتطلب منه أن يجمع قدراً كبيراً من الأموال ليسد به حاجته وحاجات أعوانه وليقدم للباب العالي الأموال التي تعهد بدفعها إلى خزانة السلطان . ولهذا شرع داود في مطالبة العشائر بدفع ما عليها من متأخرات من أموال الميرى . وكان صفوق من بين من طلب منهم داود دفع الضرائب للحكومة . وكانت أحوال عشائر شمر الجربا سيئة ، هذا فضلاً عن أن العشائر كانت غالباً ما ترفض طلبات ولاية بغداد ولا تدفعها إلا إذا شعرت بأن الوالي قد ضغط عليها بقوة . ولهذا اصطدم الرجلان بعضهما ببعض . وبعث داود باشا بحملة ضد « شمر الجربا » في ١٨١٧ ولكن لم يصل الوزير داود إلى نتيجة حاسمة بسبب قسوة هذه العشائر على التوغل بعيداً عن متناول سيوف الجيش . ومن ناحية أخرى لم تكن لدى داود فرصة متمسكة لمتابعة الضغط على صفوق بسبب هزيمة قوات الحكومة أمام عشيرة الصقور هزيمة أضاعت هيئة الوالي في البلاد الأمر الذي جعل داود باشا يركز قواته ضد عشيرة الصقور . فكان انشغاله بتلك العشائر فرصة طيبة لصفوق ليتابع تنظيم عشائره وتقوية جانبها .

ويبدو أنه خلال السنوات الأولى من حكم داود باشا كان كل من الرجلين ينظر بعين الحذر للآخر . ولم يدرك كل منهما أن العراق في حاجة إلى تعاونهما معاً إلا عندما دهم الخطر الفارسي البلاد .

لقد كان الفرس يعدون العدة للاستيلاء على العراق . وتزايد نشاطهم المعادي على الحدود الثمانية (العراقية) ، ثم قام الفرس بهجوم شامل . ومنذ البداية كان

تفوقهم العسكري وانحساراً ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود ، واقتربت القوات الفارسية من بغداد نفسها وشرعت في حصارها .

وكان المفروض أن يبعث السلطان العثماني بقوات من عنده لإيقاد بغداد من الفرس ، ولكن كل قواته كانت مشغولة بقتال القوات الفارسية في جهة أرضروم . وهكذا أصبح على العراق أن يدافع عن نفسه معتمداً قدراته الخاصة به . فما كان من داود باشا إلا أن جمع قواته ومما ليكه خلف أسوار بغداد واستعد لحصار طويل . ولكن ظلت هناك قوة عربية عراقية قادرة على الحركة السريعة وعلى مناوشة الجيش الإيراني والنيل منه ، ونعني بذلك عشائر شمر الجربا .

فقد وضع رجال شمر الجربا — تحت قيادة صفوق — سيوفهم في خدمة والي بغداد دفاعاً عن العراق ، وقام صفوق بمدة عمليات عسكرية ضد الفرس^(١) . ولكن ليس معنى هذا أن هذه القوى العشائرية كانت قادرة على رد الغزو الفارسي ، إنها تستطيع أن تكبده خسائر كبيرة ، وأن تقطع خطوط مواصلاته ، ولكنها لا تستطيع أن تهزم جيشاً مثل الجيش الذي غزا به « فتح علي » العراق ، ولقد قامت السكوليرا بهمة لإخراج الفرس من البلاد حيث أنها نقشت بينهم بقسوة فأوهنت قوتهم وجعلتهم يفضلون عقد الصلح مع الدولة العثمانية (١٨٢٣)^(٢) .

كان لتلك المجهودات الكبيرة التي بذلها صفوق في الدفاع عن العراق أثرها الكبير في نفس داود باشا ، لحفظ له الجليل . وكافأه بأن أقطعه « عانة وما يتبمها من القوى »^(٣) ، وارتفعت منزلته لدى الوزير . ويبدو أن صفوق — وقد شعر بتفوق مكانته — وجد أن الفرصة قد سنحت لفرض هذا التفوق على خصوم شمر الجربا ، وعلى عشائر عنزه بصفة خاصة . وسرعان ما وقع القتال بين شمر الجربا وعنزه ، وكسب صفوق الجولة الأولى ، ولكن عشائر عنزه كانت ضخمة العدد ، وكانت لا تقبل بسهولة مثل هذه الهزيمة ، فأعادت « عنزه » تنظيم نفسها ، وجمعت

(١) ع . الزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٦ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ، عشائر

العراق ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٨٠ .

(٣) ع . الزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ .

جموعها ، ودارت الهائرة هذه المرة على « شمر الجربا »^(١) . ولقد كان انتصار
عزّه كبيراً للدرجة أن داود باشا وجد أن عزّه أصبحت خطراً يهدد العراق . وليس
هناك من قوة تستطيع أن تصدها عن مزارع العراق سوى شمر الجربا . ولهذا عمل
داود على تقديم المعونة إلى صفوق ليعيد تنظيم عشائره ويجعلها قادرة على التصدي
لعشائر عزّه إذا عمدت إلى التوغل داخل العراق^(٢) .

ولكن فترة الوفاق بين داود باشا وصفوق لم تدم طويلاً . ففي السنوات
الأخيرة من حكم داود تحولت علاقته بصفوق إلى عدااء مستحکم . فلقد انقلبت
الصداقة إلى بغضاء شديدة حوالي ١٨٢٧ . وليس لدينا معلومات إوافية عن الأسباب
التي أدت إلى هذا التحول . ولكن هناك بعض الاتجاهات العامة التي يمكن أن
تفسر لنا هذا التطور .

لقد كان داود يحاول أن يفرض سيطرته بقوة على طول البلاد العراقية وعرضها
من الموصل إلى البصرة لعله يعيد إلى العراق تماسكه ووحدته تحت يده . ومثل هذه
السياسة تتطلب من العشائر أن تركز إلى الهدوء وإلى الاستقرار في أماكن محددة ،
وأن تعيش على الزراعة بدلاً من حياة البداوة والترحال . ولكن مثل هذه
الاتجاهات كانت لا تلقى قبولا لدى العشائر البدوية . ومن ناحية أخرى كان داود
يرى أن عدم السيطرة على شمر الجربا بالذات قد يؤدي إلى القضاء على مشروعاته
الخاصة بالسيطرة على الموصل . فلقد كانت شمر الجربا مهيمنة على منطقة الجزيرة
التي تتحكم في الطريق بين بغداد والموصل . وكان لا بد لداود — قبل أن يبدأ
عملياته إزاء الموصل — أن يضمن هدوء واستقرار عشائر شمر الجربا حتى لا تعرض
خطوط مواصلاته مع الموصل لخطر الانقطاع المفاجيء .

هذا إلى أن داود كان قد شرع في إدخال الأساليب الأوروبية الحديثة في
الجيش . والمعروف أن الجيش الحديث لا يعتمد إلا في القليل على التشكيلات
العشائرية . ومعنى هذا أن حاجة داود إلى قوة شمر الجربا قد أخذت تتناقص كلما نما

(١) ع . العزاوي ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٢) ع . العزاوي ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

جيشه الحديث . وهذا يعني أن شمر الجربا ستفقد — إن عاجلاً أو آجلاً —
الامتيازات التي كانت تتمتع بها .

أضف إلى هذا الأسباب المعتادة التي تؤدي إلى وقوع الصدام بين العشائر
والحكومة ، وأهمها رغبة العشائر باستمرار في الامتناع عن دفع ما عليها من
ضرائب ، والكراهية العميقة التي يكنها رجال العشائر العربية للحكومات الأنجلمية .

وعلى أى حال وقعت الأزمة بين داود وصفوق . وكابت أزمة طاحنة شأنها
في ذلك شأن تمرّدات عشائر شمر الجربا السابقة فهي عشائر صعبة المراس ، بعيدة
النال ، سريعة الحركة ، قادرة على أن تهبط مقتربة جداً من بغداد قاطعة الطرق
المؤدية إليها ، ناهية ما تمر به من قرى ، ثم تعود بسرعة موهلة في الصحراء فتعجز
قوات الحكومة عن اللحاق بها . ولقد طال الصراع بين صفوق وداود دون أن
يكسب الأخير أى جولة من جولات هذا الصراع الذى امتد من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ .
وفى أغسطس ١٨٣٠ استطاع داود أن يستخدم بعض وحدات جيشه الحديثة التشكيل
ضد صفوق ورجاله ^(١) . ولكن فى نفس هذه السنة بالذات انقلبت الموازين بسرعة
لصالح صفوق . فقد انفجر النزاع الحاد بين داود باشا والسلطان محمود الثانى وعزم
الأخير على إبعاد داود والماليلك عن حكم العراق وأعادته إلى الحكم المباشر العثماني
مرة أخرى (١٨٣٠) .

وترجع هذه الأزمة الكبيرة بين داود والسلطان العثماني محمود الثانى إلى أن
داود كان قد تخطى حدوده كوال عثماني على بغداد من حيث قيامه بإعداد جيش حديث
كبير قادر على التصدى لقوات السلطان نفسه . ووجد السلطان محمود الثانى أن
الإسراع فى القضاء على داود خير من الإبطاء ، حتى لا يعطى لداود فرصة لاستكمال
استعداداته . ولقد بلغت مخاوف السلطان العثماني ذروتها عندما امتنع داود باشا عن
إمداده لا بالمال ولا بالرجال خلال الحرب التركية — الروسية (١٨٢٧ — ١٨٢٩) .
ولهذا بعث السلطان العثماني إلى العراق بأحد كبار موظفيه إلى داود حاملاً فرمان
عزل داود عن ولاية بغداد . فما كان من داود إلا أن قتل مبعوث السلطان مصعداً

(١) A.N. Groves : Journal of a Residence at Bagdad during the
years 1830-1831, London, 1832, p. 24 ,

بذلك الأزيمة إلى ذروتها ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة علي باشا رضا^(١) إلى العراق .

كان طبيعياً أن يستعين علي رضا بالقوى المعادية لداود . وكان « صفوق » مستعداً للتعاون معه لتقوية مركزه في العراق تحت ستار التعاون مع جيش السلطان ضد داود الثائر على الخلافة العثمانية صاحبة الحق الشرعى في أن تولى أو تخلع من تشاء حسب منطق ذلك العصر . كذلك وجد علي باشا رضا في قاسم العمرى (والى الموصل) حليفاً قوياً له لأنه كان من ألد اعداء داود ، ونسق هؤلاء (على رضا و صفوق وقاسم العمرى) عملياتهم العسكرية ، وأصبح علي صفوق أن يقطع للمواصلات بين بغداد وبقية أجزاء العراق . فقامت عشائره بهذه المهمة . ومع هذا كانت الدلائل تشير إلى أن جيش داود كان لا يزال قادراً على الصمود طويلاً أمام جيش السلطان ومن يشد أزره . إلا أن الأفق كان أكثرى من الآمال والإمكانات . فقد انقض وباء الطاعون على جيش داود ففضى على معظمه ، وأصيب داود نفسه به ، وانفض كثير من الناس عنه فيما عدى عدد قليل من أعوانه وأهمهم يوسف أغا (رئيس الحسابات) وسليمان (الميرأخور)^(٢) ومحمد افندى (المصرف) . وقد حاول هؤلاء الثلاثة القيام ببعض العمليات التى يمكن بها تقوية جانب داود فى هذه الأزيمة الطاحنة . ولكن كان صفوق وقاسم العمرى لهم بالمرصاد . فقد اتفقا على فرض حصار خاتل على بغداد يمنع الخروج منها أو الدخول إليها حتى تضطر إلى التسليم . وعندما حاول يوسف أغا العودة إلى بغداد على رأس قوة مسلحة وبأموال معه كثيرة — كان قد جمعها من نواحي كركوك — أسرع صفوق إلى خمسمائة من خيالة شمر الجربا ومعهم ثلاثين من مشاة العقيل من حملة البنادق . ووسع خطته على أساس أن يكن مشاة العقيل فى أحد الأنهار الجافة بينما يقوم خيالة شمر باستدراج قوات « يوسف أغا » إلى هذا السكين . ونفذت الخطة بنجاح وسقط عدد كبير من القتلى بل وقع يوسف أغا نفسه أسيراً فى يد رجال صفوق^(٣) . وكانت هذه الهزيمة بمثابة بداية

(١) كان والياً على حلب فاستندت إليه ولاية بغداد والموصل ودار بكر ليقوم بالقضاء على داود وبماليكه .

(٢) منصب من المناصب المملوكية الكبيرة .

(٣) سليمان غائق : تاريخ بغداد ، ص ٧٨ - ٧٦ .

النهاية لداود ورجاله ، فقد استسلمت بغداد إلى قاسم على اعتبار أنه قاطعاً على باشا رضا^(١) .

دخل قاسم العمرى بغداد وفي معيته صفوق ورجاله ، وسليمان الغنام ورجاله من العقيل . وكان هذا في محرم ١٢٤٧/ ١٨٣١ . ويحدثنا الكاتب التركي سليمان فائق عن أن صفوق عنى عناية خاصة بالبحث عن زوجة سليمان أغا (الميراخور) ليحصل عليها حيث أنه كان يدعى أنها وهبت له من قبل^(٢) .

أما سليمان الغنام ورجاله من العقيل فكانوا يقومون كذلك بعمليات النهب والسلب حيث أن قاسم العمرى كان قد ترك الحبل على غاربهِ لكل من سليمان الغنام و صفوق . وحيث أن كلا منهما كان بدوياً لا يتقن فن إدارة المدنى أو معاملة أهاليها فقد أئدماً على تعديات خطيرة . وقد حاول أهالى المدينة ردهما بالحسن دون جدوى . فلم يبق أمامهم سوى الاحتكام إلى السيف رغم ما كانوا عليه من حالة نفسية ومادية متدهورة بسبب النكبات المتتالية التى ألمت بالمدينة خلال فترة قصيرة من الزمن (١٨٣٠ — ١٨٣١)^(٣) . ورغم ذلك أعلن البغداديون ثورتهم على قاسم العمرى وأعوانه (صفوق وسليمان الغنام) . فقتلوا الأول وعزموا على خوض معركة ضد القوات الشمرية والعقيلية ، رغم ما عرف عن القوات الشمرية من كثرة عدد وقسوة فى القتال ، ورغم ما عرف عن العقيليين من دقة فى استخدام البنادق .

ومن المعروف عن القوات الشمرية أنها أعجز من أن تقا تل داخل المدينة قتال شوارع لعدم تمرسها على هذا النوع من القتال . ولهذا آثر صفوق أن يغادر بغداد بـرجاله ، وبأقصى سرعة ممكنة ، كما فر منها سليمان الغنام ورجاله العقيليين^(٤) .

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا . الفصل السابع عبارة عن دراسة مفصلة لظروف التى أدت إلى استسلام بغداد لقاسم العمرى .

(٢) تاريخ بغداد ، ص ٨٤ .

(٣) خلال السنتين ١٨٣٠ — ١٨٣١ تعرضت بغداد لحصار قوات السلطان ، ولوباء الطاعون الذى أفنى أغلبية سكانها ولفيضان نهر دجلة التى دمر وشرّد معظم البقية الباقية من سكان ومبانى المدينة .

(٤) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٣ — ٨٤ ؛ رحلة فريزر ، ص ١٢٢ .

وهذا تخلص البغداديون من هذا الحكم البدوي الذي كاد أن يجهز على المدينة . وهكذا أثبتت الطبائع البدوية أنها غير قادرة على إدارة أمور مدينة أو ولاية . هذا فضلا عن أن الفردية تغلبت على أعمال كل من قاسم العمري وصفوق وسليمان الغنام فعلى حد قول سليمان فائق :

« لقد تفرد كل من ... صفوق وسليمان الغنام بإصدار ما يعمدون من الأوامر المتضاربة دون التشاور بعضهم بعضاً . ولم يكونوا على أمر جامع » (١) .

كان البغداديون يعتقدون أن مصرع قاسم العمري وفرار صفوق وسليمان الغنام من بغداد قد يقنع السلطان العثماني — محمود الثاني — وعلى باشا رضا بأن اقتحام بغداد بالقوة أمر بعيد الاحتمال . ولكن « على باشا رضا » كان عنيداً مصرّاً على أن يستولى على بغداد فتابع حصارها تشد أزرها قوات شمر الجربا بقيادة صفوق . واضطرت بغداد في نهاية الأمر أن تفتح أبوابها لعلي باشا رضا ، بل استسلم إليه داود كذلك . ودخلت قوات علي رضا بغداد وبدأ بذلك الحكم المباشر الثاني لبغداد (١٨٣١) .

ونلاحظ هنا أن القوات التي دخلت بغداد لم تتضمن أية قوة عشائرية ، وهذا يدل على بعد نظره ، وقدرته على التعلم من الأخطاء السابقة . هذا إلى أن علي رضا كان قد جاء إلى العراق ليقضى على نظام الممالك حتى يصفو الجو للحكم المباشر . وهذا يتطلب كف أية قوة أخرى غير قوة الوالي العثماني عن ممارسة الحكم أو توجيه الأمور ، ومن ثم فهممة قوات شمر — من جهة نظر علي رضا — هي القيام بالجهد العسكري دون التطالع إلى أي نوع من أنواع المشاركة في الحكم أو امتيازاته .

ويبدو أن صفوق أدرك هذه الحقيقة ، فنقل بسرعة نشاطه إلى الديدان الذي يستطيع أن يحصل فيه على مكاسب أكثر واقعية . ففي أعقاب سقوط بغداد في يد علي رضا نجد صفوق يقود قواته ضد عقيل السمدون — شيخ عشائر المنتفق .

كانت عشائر المنتفق من كبريات عشائر العراق ، وكافت تسيطر على مقدرات البصرة ، وبلغت هذه العشائر درجة كبيرة من القوة عندما استطاعت أن ترفع سميده

باشا إلى منصب الولاية (١٨١٣) ، وظلت عشائر المنتفق تشد أزره ضد منافسة داود لمدة طويلة . ولما نجح داود في الحصول على منصب الولاية أخذ يتدخل في أمور المنتفق حتى أحنده مشيختها إلى « عقيل السعدون » الموالي له . وعندما وقعت الأزمة بين داود باشا والسلطان العثماني (١٧٣٠ — ١٨٣١) وقف « عقيل السعدون » بجانب داود . فلما استسلم داود إلى « علي رضا باشا » أصبح على هذا الوالي الجديد أن يتخلص من أعوان داود في العراق ، وبالتالي أصبح الصدام بين « عقيل السعدون » والحكم العثماني الجديد أمراً لا مناص منه .

وكان المفروض أن يبعث « علي باشا رضا » حملة ضد « عقيل السعدون » الذي عزله عن المشيخة ، ولكن اتبع « علي رضا » السياسة المألوفة لدى ولاية العراق في مثل هذه الأمور . وهي ضرب العشائر بعضها ببعض . وكان صفوق « شيخ ثمر الجربا » مستعداً لأن يوجه قواته ضد « عقيل السعدون » . وكانت الظروف مواتية لصفوق ليضرب ضربته بقوة ، حيث أن الإنقسام في البيت الحاكم السعدوني نفسه كان كبيراً ، بل كان في بغداد عدد من الشيوخ السعدونيين المناهضين لعقيل لنفسه ويسعون إلى خلعهم من المشيخة والخلول محلّه . وكان هؤلاء الشيوخ السعدونيون يحثون « علي باشا رضا » على التدخل ضد ابن عمهم « عقيل السعدون » ، وعرضوا عليه تقديم كافة المساعدات في مقابل حصول أحدهم على المشيخة وانتهت هذه المفاوضات بتفاهم تام بين هؤلاء وعلي رضا وصفوق بأن يقوم صفوق ورجاله بالزحف ضد « عقيل السعدون » يشد أزرهم أعوان أولئك المشايخ المنافسين لعقيل . وفعلات الترتيبات على أساس أن يقوم صفوق بالتعاون مع الشيوخ السعدونيين المتحالفين معه بحملة كبيرة ضد « عقيل السعدون » .

زحفت قوات صفوق وحلفائه صفوال وحلفائه ديار المنتفق ، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، وأحرز صفوق ورجاله نصراً كبيراً ولكن بعد قتال مرير من جانب المنتفق حتى لقد سقط « عقيل السعدون » نفسه في المعركة . ولا شك أن مصرعه كان في حد ذاته عاملاً حاسماً في هزيمة المنتفق حيث أن موت الشيخ أو القائد حينذاك كان يعني تشتت شمل قواته وهزيمتها . وكان طبعاً أن يذبح صيت

صفوق بعد ذلك ، حتى لقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت لقب « سلطان البر »^(١) .

لقد أصبحت عشائر شمير الجربا - في أعقاب ذلك - من أكبر عشائر العراق فعالية ، وأكثرها قدرة على الحركة لتمدّد خبراتها في القتال وتنوع الأزمات التي تعرضت لها . فأكسبت تلك الظروف « صفوق » بصفة خاصة ، ورجال عشيرته بصفة عامة ، خبرات سياسة وعسكرية لم تكن متوفرة لدى غيرهم من رجالات العشائر الأخرى ، وكان هذا في وقت دخل فيه الوطن العربي في تجربة جديدة هزته هزاً عنيفاً ، وجمعت العراق مجالا من مجالات السياسة الدولية النشطة ، ونعنى بذلك الانتشار المصري في المشرق العربي فيما بين ١٨٣١ و ١٨٤١ .

فبعد نشوب القتال بين الجيش المصري والجيش العثماني في الشام إبتداء من أكتوبر ١٨٣١ أصبح لزاماً على « علي باشا رضا » أن يسهم بنا لديه من إمكانيات في المجهود الحربي العثماني من أجل عرقلة التقدم المصري في الشام ومن أجل تقويض دعائم الوجود المصري هناك تنفيذاً للسياسة العامة للسلطان العثماني محمود الثاني الذي طالب الولاة بتقديم كل مساعدة ممكنة للجيش العثماني في حربها ضد « محمد علي باشا » وإلى مصر . وكان الأمر أمام « علي رضا باشا » صعباً حيث أنه كان يعتمد على القوات التي جاءت معه من حلب إلى العراق . ومعظمها قوات غير نظامية كثيرة الشغب صعبة القيادة ليس من اليسير الإعتماد عليها في حرب كتلك التي كانت تدور رحاها في الشام بين القوات المصرية والقوات العثمانية .

وهكذا وجد علي باشا رضا نفسه مضطراً إلى إستخدام القوات العشائرية في شد . أزر الجيوش العثمانية المقاتلة في الشام وحيث أن عشائر شمير الجربا كانت قد اشتهرت بقدراتها العسكرية فقد وضع « علي رضا » عينه عليها كقوة يمكن الإسهام بها في الحرب الدائرة في الشام . خاصة وأن هذه العشائر كانت من أكثر عشائر العراق

(١) عباس الزاوي : تاريخ العراق ، ج ٧ ، ص ١٩ ، واقب « سلطان البر » كان يمنح للشخصيات العربية القوية . ولقد حصل عليه نضر الدين المعني في أوائل القرن السابع عشر . انظر الحوروي بولس قرالي ، نضر الدين المعني الثاني ودولة تسكانيا ١٦٠٥ - ١٦٣٥ ، رمية بحم العلوم والفنون للسكي الإيطالي ، ١٩٣٨ ، الجزء الثاني ، ص ١٦ .

تعاوناً معه في العراق . فكان من المنتظر أن تكون مستعدة كل الإستعداد للقيام بتلك المهمة . هذا فضلاً عن أن أراضي شمر الجربا كانت تمتد على مساحات واسعة من الجزيرة العراقية .

فند أوائل القرن التاسع عشر أصبحت الجزيرة العراقية ذات أهمية كبيرة دولية بسبب التطورات التي حدثت في أساليب المواصلات العالمية تلك التطورات التي جعلت أنظار أوربا تتجه إلى إعادة الحياة إلى الطرق العالمية القديمة عبر الشرق الأوسط إلى آسيا على اعتبار أنها أقصر من طريق « رأس الرجاء الصالح » وعلى اعتبار أنها أقدر على إستيعاب أساليب النقل الحديثة البخارية ، فاتجهت للشروعات نحو مد خطوط بخارية ملاحية بين الموانئ الأوربية والساحل السوري ومنه تنقل البضائع إلى يبره جك في أعلى نهر الفرات أو إلى الموصل على نهر دجلة ، ومن هناك يعاد شحن البضائع على بواخر تهبط أحد النهرين إلى الخليج العربي ومنه إلى الهند والشرق الأقصى^(١) . ومن هنا برزت أهمية الجزيرة العراقية حيث أنها تقع بين نهري الفرات ودجلة وتسيطر على هذا الطريق الدولي الجديد .

وهكذا أدى اختراع السفن التجارية والتوسع المصري في الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) إلى إرتفاع أهمية الجزيرة العراقية إلى مجالات التنافس الدولي^(٢) ، وإلى أن تجد عشائر شمر الجربا — المسيطرة على الجزيرة العراقية ، نفسها في موقف جديد سواء من حيث الأوضاع الداخلية أو الخارجية ومن ناحية أخرى كان على رضا لاشك سيجعل مميزات الجزيرة العراقية في خدمة أهدافه إذا ما ضمن تعاون صفوق معه تعاوناً كاملاً . ولعل هذا يفسر لنا لماذا علق « على رضا » آملاً واسعة على صفوق ورجاله .

(١) انظر Hoskins : British Routes to India, New York, 1928, Chapters II-XIII.

(٢) أصبحت الجزيرة العراقية مجالاً واسعاً للدراسات الأنجليزية التي كانت تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العشائر العربية النازلة فيها حيث أن أي اضطرابات عشائرية كانت تهدد بالقضاء على المشروعات الأنجليزية الهادفة إلى إستخدام البواخر في نهر الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج العربي . ولقد كانت الاضطرابات العشائرية كثيرة الوقوع في الجزيرة بسبب الصراع المتتالي بين عشائر شمر الجربا وعثره .

أضف إلى هذا أن « علي باشا رضا » كان يعتقد أن « صفوق » سيقدم خدماته للسلطان العثماني خلال أزمة التوسع المصري على نفس المستوى الذي كان عليه صفوق عندما خدم الدولة العثمانية خلال حربها ضد الفرس (١٨٢١ — ١٨٢٣) وعلى نفس المستوى الذي تعاون به مع جيش السلطان ضد داود باشا (١٨٣٠ — ١٨٣١) وأيضاً على نفس المستوى الذي قاتل به « عقيل السعدون » شيخ المنتفق (١٨٣١).

ويكشف لنا فرمان الذي أصدره السلطان محمود الثاني إلى والي الشام عن تلك الآمال الواسعة حيث جاء فيه أن صفوق وصل الحابور^(١) جامعاً جموعه « كالجراد المنتشر قد ملأ الفضاء والبر »^(٢) واتجه بهذه الجموع التي كانت تعدد بحوالي ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل صوب الشام للتعاون مع الجيوش العثمانية ضد الجيوش المصرية هناك .

ولقد جمع صفوق جموعه حقاً ، وبدا كأنه سيلتحق بالقوات العثمانية في الشام . ولكن حدث تغير خطير في أهدافه واتجاهاته ، حيث أنه غير رأيه ، وبدلاً من أن يزحف صوب الشام لوى عنان فرسه وهبط صوب بغداد ليحاصرها شاهراً السيف في وجه الأتراك العثمانيين^(٣) .

وليس لدينا أية وثيقة تكشف لنا عن الأسباب التي أدت إلى هذا التحول المفاجيء في موقف صفوق من الحكم العثماني سوى ما ذكره لوريمر Lorimer^(٤) من أن صفوق طالب « علي رضا باشا » بامتيازات لم تلق القبول منه^(٥) . وأغلب الظن أن هذا السبب يمثل واحداً من أسباب عديدة أخرى هيأت الظروف لثورة

(١) نهر في شمال العراق .

(٢) عابدين محظفة ٢٣١ وثيقة ٢٨ في ١٢ ذي القعدة ١٢٤٧ هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٢

(٣) عابدين محظفة ٢٤٦ وثيقة ١٧٨ ، ١٧٩ « غير مؤرختان » .

(٤) أحد موظفي حكومة الهند المسؤولين عن جمع المعلومات عن العراق والخليج العربي وهو صاحب الموسوعة الانجليزية عن الخليج العربي .
Gazetteer of the Persian Gulf .

Larimer : op. cit., vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٥)

صفوق على الحكم العثماني ، وبعض هذه الأسباب يتعلق بالموقف في العراق نفسه .
وبعضها الآخر يتعلق بالموقف في المشرق العربي على وجه العموم .

فقد قامت في بغداد ثورة كبيرة ضد علي باشا رضا^(١) ، وأعلن يحيى باشا الجليلي
(والى للوصل السابق) أنه عاد إلى حكم ولايته لا ليتولاها من قبل السلطان العثماني ،
وإنما عاد ليحكمها من قبل الحكومة المصرية . وفي أقصى جنوب العراق كان
الموقف حرجاً أمام « علي باشا رضا » لوجود حزب قوى في البصرة يناصر المصريين
ضد العثمانيين^(٢) وبذلك يكون العراق كله عرضة لأن يخرج على العثمانيين . خاصة
عندما انتشرت فيه أنباء سقوط عكا في يد القوات المصرية . ويبدو أن القوى
المناهضة للحكم العثماني في العراق عازمت على انتهاز هذه الفرصة لإحراز مكاسب
جديدة أو للتخلص من التدخل التركي في شئوننا . ومن ذلك أن محمد بك — أمير
راوندوز — سعى إلى السيطرة على معظم كردستان ، ولكن الأخطر من هذا وذلك
هو ما ذكره الميجور روبرت تيلز — الوكيل السياسي الإنجليزي في بغداد Major
Robert Taylor من أنه كان هناك تحالفاً بين محمد بك (أمير راوندوز)^(٣)
ويحيى الجليلي (حاكم للوصل) وصفوق (شيخ عشائر شمر الجربا)^(٤) .

وسواء أ كان هناك تحالف متفق عليه أم أن الأمر لا يعدو أن يكون اتجاهات
عاماً لدى القوى المناهضة للحكم التركي في العراق . فإن مجرد ظهور مثل هذه القوى
بمظهر التعدي العلني للحكم التركي العثماني كان كافياً لتشجيع العناصر الأخرى
المعادية للأتراك على الخروج إلى مجال العمل الإيجابي ضدهم . ومن ذلك تعاون بقايا

(١) Intelligence from Bagdad contained in Report from Wood, 2 August 1832, F.O. 78/210.

(٢) Robert Taylor to Secret Committee, July 29, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 49, pp. 541-543).

(٣) إمامة في شمال العراق في قلب ديار الكرد .

(٤) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

المالِك مع تلك القوى ضد العثمانيين^(١)، وانضمام سليمان بابان (حاكم السليمانية)^(٢) إليها، وكانت تلك القوى تمثل خطراً شديداً على الوجود العثماني في العراق.

فقد ثبت فعلاً أن يحيى الجليلي كان قد نسق عملياته العسكرية مع صفوق^(٣)، كذلك بمحدثنا اليجور «روبرت تيلر» عن أنه كان لدى صفوق مستشارين مصريين^(٤). ومن ثم كان الزحف المفاجيء الذي قام به صفوق صوب بغداد — الثائرة ضد «علي باشا رضا» — يمثل ذروة الخطر الذي تعرض له وإلى العراق حينذاك، حيث أن قوات صفوق استطاعت أن تسيطر على الطرق المؤدية إلى بغداد وأن يضرب الحصار عليها الأمر الذي جعل «علي رضا» بين نار ثورة داخلية ونار قوات صفوق من خارج بغداد.

ورغم تلك الأخطار المتعددة استطاع علي باشا رضا أن يتغلب على تلك القوى المعادية له. فقد قضى إلى بغداد على ثورة بغداد بضرب المدينة بالمدفعية، فأصبح من المتعذر على صفوق أن يقتحم المدينة لأن الثورة في داخلها كانت قد أخذت تحسب بل كذلك لأن القوات العشائرية البدوية لا تستطيع أن تقيم الحصار على مدينة مسورة لمدة طويلة. وكان هناك عامل آخر قوى أرغم صفوق على رفع الحصار عن بغداد وهو مقدم جموع كبيرة من عشائر عنزه.

فقد كان من سياسة ولاية بغداد أن يضربوا العشائر العربية بعضها ببعض، ولهذا حرص «علي رضا» عشائر عنزة ضد «شمر الجربا» واتفق مع عنزه على أن تحصل على أراضي شمر الوفيرة المرعى في حالة انتصارها عليها. وكان هذا وعداً

R. Taylor to Secret Committee (Ind. Office Rec., Fac. Rec., (١)
Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 541-543 and vol. 47, pp. 354-359).

R. Taylor to Secret Committee, Oct. 24, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 784-791). (٢)

R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673). (٣)

R. Taylor to Secret Committee, Oct. 26, 1833 (Ibid., pp. 785-792). (٤)

مضرباً كل الإغراء جعل عشائر عنزه تبذل كل ما لديها من قوة من أجل الانتصار على شمر (١).

وخلال هذا كان علي رضا قد أعلن عن عزل صفوق عن مشيخة عشيرته ، وأسندها إلى « شلاش » ، إلا أن الأخير كان ضعيف الشخصية الأمر الذي جعل معظم العشائر الشمرية منضوية تحت زعامة صفوق . ومع هذا فضل صفوق أن ينسحب بمشائره موغلاً صوب الشمال وبذلك لم يمد صفوق خطراً على بغداد ولهذا سحب علي رضا وعوده لعشائر عنزة .

وعندما وجدت عشائر عنزه أن « علي باشا رضا » قد سحب وعده أقدمت على خطوات إرهابية بأن فرضت حصاراً جزئياً على بغداد وأصبح علي « علي رضا » أن يجهز حملة كبيرة ضد « عنزة » وكان من المعروف أن التغلب على « عنزة » يتطلب تعاون عشائر شمر بالذات معه . وكان « شلاش » مستعداً كل الاستعداد ليضع ما تحت يده من رجال تحت قيادة « علي باشا رضا » . وفي هذه الأثناء علم صفوق بهذه التطورات وأدرك أن القضية ليست قضية والى بغداد وشلاش وحدهما بل هي جزء لا يتجزأ من الصراع التقليدي بين شمر وعنزة ، ورأى أن الظروف تحتم عليه أن يتناسى أسباب النزاع ، وأن يضع يده في يد شلاش ضد عنزة . وأغلب الظن أن صفوق أدرك أن قوات « علي باشا رضا » وقوات شلاش غير قادرة على التغلب على « عنزة » ولعل هذا هو الذي أدى إلى عودة التفاهم بين علي باشا رضا وشلاش من جهة وصفوق من جهة أخرى . وفعلاً بعث صفوق بالني رجل للاشتراك في الحملة ضد « عنزة » وبعث صفوق إلى شلاش يقول له :

« أنا وأنت متخاصمان ويمكننا أن نسوى النزاع بيننا ولكن شرف العشيرة في الوقت الحاضر قد تعرض للخطر ، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقدم ممنونى المحافظة عليه » (٢) .

ويبدو أن صفوق كان يعتقد أن عنزة لن تلقى بكل قواتها في المعركة ، أو ربما

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf. vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٢) فريزر : رحلة فريزر ، ص ١٣٤ .

كان يعتقد أن اشتراك قوات الحكومة بما لديها من مدفعية كفيلاً بأن يرهب عشائر عنزة ، فلا توسع في نطاق القتال وتنسحب إلى مراعيها . ولعل هذه هي العوامل التي جعلت صفوق يقتصر على إرسال ألفي مقاتل فقط من رجاله . ولكن الحقيقة هي أن عنزة كانت مستعدة لخوض المعركة بخمسة وثلاثين ألف مقاتل . ويرى الرحالة السياسي الانجليزي فريزر Fraser أن هذه المساعدة من جانب صفوق لشلاش في هذه الظروف لم تكن مجدية حيث أن مجموع شمر الجربا لم تكن بقدرة على مواجهة جموع عنزة التي كانت متفوقة من حيث العدد بمراحل كبيرة .

وعلى أي حال قامت قوات شلاش وصفوق وعلى رضا بحملة مشتركة ضد عنزة التي تصدت لهذه القوات ، وبعد أن دارت المعركة بدا واضحاً أن كفة عنزة هي الراجحة . فقد اندحرت بسرعة قوات علي باشا رضا ووقعت المدافع في يد رجال عترة . وسقط شلاش صريعاً ، وتحولت المعركة إلى مذبحة للقوات الشمرية . والملاحظ أن قوات عترة آثرت أن تلتقي بثقتها على رجال شمر مخفية سبيل القوات النظامية التابعة لوالى بغداد . وكانت صيحة عنزة في تلك المعركة :

« خل النظام واقتل الجربا »^(١) .

ولاشك أن هذه الهزيمة الكبيرة التي منيت بها عشائر شمر الجربا هزت مكائنها حينذاك ، بينما كان عدم تشكيل عشائر عترة بالقوات النظامية سبباً في أن يبقى الباب مفتوحاً للتفاهم بينها وبين علي باشا رضا^(٢) . كما نلاحظ أن « علي رضا » شرع في تضيق الخناق على صفوق وحلفائه مرة أخرى وبوجه خاص على « يحيى الجليلي » في الموصل . وكانت هناك في الحقيقة ضرورة ملحة لذلك حيث أن وجود « يحيى الجليلي » (التعاون مع القيادة المصرية في الشام) في الموصل كان يمثل خطراً كبيراً على الوجود العثماني في العراق .

وكان تدهور مكانه « شمر الجربا » بعد هزيمتها أمام عنزة من العوامل التي

(١) فريزر ، ص ١٣٤ .

(٢) يتضح هذا من أن عشائر عترة سرعان ما رقت حصارها عن بغداد رغم اقتصارها في تلك المعركة انظر :

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, pp. 1317-1318.

مكنت القيادة العثمانية من توجيه ضربات قاصمة إلى الحليين الكيرين «بحي الجليلي» وإلى الموصل الليال إلى المصريين ، وصفوق التعاون معهم كذلك (١) .

وكان طرد «بحي الجليلي» من الموصل وطرد القوى العراقية الميالة إلى المصريين أو اتهمت بالميل إليهم من أمثال أمير اوندوز (محمد بك) في شمال العراق يتطلب التخلص من صفوق أولاً . وكانت فكرة التخلص من هذه الزعامات تدرس بعناية وعلى أعلى المستويات . فقد كانت السلطات الإنجليزية الدبلوماسية وغير الدبلوماسية تبذل جهوداً واسعة لتقوية جانب الحكومة العثمانية في العراق ، وللقضاء على القوى المؤيدة للمصريين .

وكان هناك طريقان للتخلص من صفوق :

١ — إرسال حملة كبيرة ضد عشائر شمر الجربا وإنزال الضربات المتتالية بها حتى ترغم على الخضوع لأوامر الحكومة وحتى تضطر إلى تسليم صفوق إلى وإلى بغداد تمهيداً لإسناد المشيخة لزعيم متفاهم مع الحكومة .

٢ — تدبير مؤامرة توقع بصفوق في قبضة رجال الحكومة .

لقد كان الطريق الأول وعراً وغير معروف النتائج حيث أن الحكومة منذ زمن بعيد فشلت في السيطرة عسكرياً على أية عشيرة بدوية ، وكانت الحملات الحكومية ضد العشائر الكبرى لا تنتهي إلى إنتصار حاسم وغالباً ما كانت تنتهي بتفاهم بين الطرفين على أساس أن يتنازل كل طرف عن بعض إدعاءاته أو مطالبه . ولكن هذه الظروف الجديدة لم تكن تجدى معها الحلول الوسط ، حيث أن وجود صفوق على رأس عشائر شمر الجربا كان كفيلاً بأن يجعل حكومة بغداد في انزعاج دائم من وقوع تعاون بين صفوق والقيادة المصرية في الشام ضد القوات العثمانية في العراق .

لقد كان « على رضا » يدرك أنه من الضروري أن يتلخص من صفوق بالذات على اعتبار أن غيره من آل محمد (مشايخ شمر الجربا) ليس على كفاءته أو قدرته

(١) Taylor to Secret Committee, September 5, 1834, 1st Novem-
ber 1834 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian
Gulf, vol. 51, pp. 1-3, 420, 547-555).

في التفاهم مع القيادة المصرية في الشام . وحيث أن طريق القوة كان لا يحقق أهداف على رضا فقد عمد إلى أسلوب الخديعة والتآمر . وهو أسلوب مهتر فيه على رضا إلى حد كبير ، واستطاع بواسطته أن يحقق نتائج هامة ما كانت الدولة تستطيع أن تحققها إلا بنفقات مالية كبيرة وإلا بإسالة دماء غزيرة .

كان القبض على كل من « صفوق الفارس » و « محمد بك » صورتين من صور تلك المؤامرات الناجحة التي دبرها « على رضا » ضد القوى الوطنية . فقد أعلن « على باشا رضا » أنه سيخلع على صفوق في حفلة تقام خصيصاً لذلك . وكان صفوق في موقف لا يحسد عليه وفي حاجة إلى أن يتعاون مع حكومة بغداد إذا أراد أن يستعيد مكانته وأن يداوى جراح عشيرته وأن يعيد إلى العشيرة تماسكها . فقبل صفوق الدعوة ، وما أن ذهب إلى مقر الحفلة حتى أُلقي القبض عليه ^(١) .

لقد كان القبض على صفوق حلقة من سلسلة من المؤامرات التي دبرها « على رضا » ضد الزعامات العراقية المناوئة له . حيث دبر مؤامرات عديدة مشابهة أدت إلى القبض على محمد بك (أمير راوندوز) وعلى عدد من الزعماء الأكراد . وأرسل هؤلاء جميعاً إلى خربوط تحت حراسة مشددة ١٨٣٤ (٢) . وبعد وقت قصير نفذ حكم الإعدام في محمد باشا ، بينما نقل صفوق إلى الآستانة وعاش فيها منفياً هو وابنه فرحان وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان للانجليز يد في تلك المؤامرة التي أدت إلى القبض على صفوق ؟

إن السبب الذي جعلنا نلقي بهذا التساؤل هو أنه كانت للدبلوماسي الإنجليزي النشط ريتشارد وود Richard Wood دور كبير في إقناع محمد بك بالإستسلام للعثمانيين وبعدم التجاؤد في الثورة ضد السلطان العثماني ^(٣) . وكان هدف الإنجليز من وراء ذلك هو تقوية قبضة الحكومة العثمانية على ما تحت يدها حتى تستطيع

(١) H. Layard : Nineveh and its Remains, London, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Werry to Ponsonby : December 3, 1836 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 54, pp. 833-854).

(٣) Ponsonby to Palmerston, October 12, 1836 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Pers. and Pers. Gulf, vol. 54, pp. 675-678).

أن تركز جهودها بعد ذلك ضد الوجود المصري في الشام وشبه الجزيرة العربية وحتى يصبح ظهرها آمناً عندما يشتبك الجيش العثماني مع الجيش المصري في الشام في الجولة التالية المنتظرة .

ولقد كانت لدى الإنجليز مصلحة كبرى في شد أزر الدولة العثمانية ضد الوجود المصري في الشام أو في شبه الجزيرة العربية ولهذا كانت السلطات البريطانية معنية كل العناية بأن يكون ظهر الجيش العثماني آمناً عندما يخوض المعركة المقبلة ضد المصريين في الشام ، هذا فضلاً عن أن تقوية قبضة الحكومة على عشائر شمير الجربا بالذات يعين الإنجليز على تنفيذ مشروعاتهم الكبيرة بشأن استخدام العراق كطريق قصير للمواصلات بين الشرق والغرب بواسطة تشغيل خط بواخر بين الموانئ الإنجليزية والساحل السوري ، وبين أعلى نهر الفرات والخليج العربي والهند .

ولملاحظ أن الإنجليز ركزوا في ذلك الوقت عنايتهم بشدة على طريق العراق بين الشرق والغرب . واتجهت الحكومة الإنجليزية إلى إدخال مشروعاتهم إلى التنفيذ في أعقاب التوسع المصري في الشام ، حيث أن هذا التوسع قد أدى إلى أن أصبح طريقاً للمواصلات بين الشرق والغرب عبر كل من العراق ومصر تحت سيطرة حكومة القاهرة ومن ناحية أخرى كان المشروع الإنجليزي لربط الشرق بالغرب — بواسطة خط بواخر يعمل في نهر الفرات — لا يخدم هذه الأهداف فقط بل كذلك كان يمكن الإنجليز من التصدي لأية قوة مصرية تحاول عبور نهر الفرات إلى العراق حيث أن البواخر التي كانت معدة للعمل في نهر الفرات كانت بواخر مسلحة^(١).

وكان تنفيذ كل تلك المشروعات والأهداف الإنجليزية يتطلب الوصول إلى تفاهم مع العشائر الكبرى المسيطرة على الطريق بين الساحل السوري ونهر الفرات ، حيث وضعت الحطة على أساس إرسال بواخر مفسكة من إنجلترا إلى الساحل السوري ومنه إلى نهر الفرات . وهذه العملية لا يمكن لها أن تتم بنجاح إلا بعد الوصول إلى تفاهم مع عشائر شمير ، وكذلك مع عشائر عنزة .

(١) درسنا هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا « المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ » ، دراسة وثائقية للتطورات التي أدت إلى احتكار بريطانيا الملاحة في العراق ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ .

ولهذا ، عندما اقترب موعد إرسال الباخرتين — المدينتين للعمل في نهر الفرات — إلى العراق ، أرسلت السلطات الانجليزية إلى العراق اثنين من رجالها المارفين بطبائع العشائر وهما كريستيان رسام C. Rassam (١) ، والستر إليوت Eliot الذي قال عنه قائد البعثة المكلفة باستخدام الباخرتين في نهر الفرات أنه ينحدر من سلالة عربية (٢) .

كل هذه الإستعدادات تؤكد لنا أن الانجليز كانوا يفضلون وجود شيخ ضعيف في مشيخة شمر الجربا ، ومن ثم كان القبض على صفوق على هوى الانجليز لأنه يزج عن طريقهم زعيما صعب الراس قادراً على تهديد مشروعاتهم بخطورة . فقد كان الانجليز في حاجة إلى تفاهم أكيد أيضاً مع عشائر عنزة حيث أن الهدوء بين هذه العشائر من جهة وعشائر شمر الجربا من جهة أخرى كان أمراً ضرورياً كل الضرورة انجاح المشروعات الملاحية الانجليزية في الفرات .

فهل كان من الممكن للانجليز أن يتوصلوا إلى إتفاق ترضى عنه هاتين العشيرتين المتماديتين ؟

لقد كان ذلك عسيراً ، وكان وجود صفوق في المشيخة يجعل هذا الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة . أما وجود شيخ آخر مكانه ، يكون أقل شهرة منه ويكون أكثر ليونة ، فانه يمد الطرق بسهولة أمام الانجليز . ولقد كان المرشح الجديد لشيخ شمر على هذه الصفات التي أرادها الانجليز ، ولعل هذا يفسر لنا نجاح المفاوضات التي دارت بين المسئولين الانجليز وشيخ شمر الجديد بشأن عقد صلح دائم بين شمر وعنزة فتحدثنا الوثائق الانجليزية عن أن الانجليز توصلوا إلى اتفاق يكفل لهم التنقل بين الساحل السوري ونهر الفرات دون أن يتعرضوا لأية هجمات من جانب العشائر (٣) .

حقيقة أدى إبعاد صفوق عن العراق إلى تقوية السيطرة العثمانية عن ذي قبل

(١) مسيحي عراقي سيصبح بعد ذلك وكلا سياسياً للانجليز في الموصل من ١٨٣٩ -

• ١٨٧٢

F.R. Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition, (٢) London, 1856, pp. 239-241.

Palmerston to Ponsinby, July 28, 1936, No. 63, F.O. 195/130. (٣)

في منطقة الجزيرة المراقية وإلى تحويل الموصل — بعد طرد يحيى الجليلي منها — إلى قاعدة عثمانية هجومية ضد الوجود المصري في الشام . ولكن ذلك الأسلوب الذي اتبع في القبض على صفوق كان ممقوتاً جداً لدى أهل العراق . علاوة عن أنه أسلوب مكروه بصفة عامة .

فما لاشك فيه أن تلك الأساليب التآمرية في القبض على الزعامات الوطنية كانت تعطى الحكومة العثمانية سيطرة مؤقتة ونصراً مظهرياً . فالملحوظ أنه عندما تقع أزمة بين الناس والحكومة سرعان ما تستعيد ذاكرة الناس تلك الأساليب التآمرية التي اتبعتها الحكومة العثمانية ويكون ذلك مبرراً للتمرد والثورة واستخدام أساليب مماثلة ضد الحكومة نفسها .

وبالنسبة للعشائر العربية بالذات كان القبض على شيخها يمثل هذه الأساليب التآمرية يعتبر سقطة للحكومة لا يمكن أن تغفر ، ولا يمكن أن تكسب — حكومة هذه أساليبها — ثقة وإحترام العشائر . وهذا يفسر لنا موقف عشائر شمر الجربا بعد اعتقال صفوق . فقد ظلت عشائره تأثراً على الحكومة ، ولم يستطع الشيخ (١) — الذي عينه « على رضا » خلفاً لصفوق — أن يثبت أقدامه في المشيخة ، بل لقد أصبح صفوق بطلاً من أبطال العرب الذي لا يعرف الخداع ويشق طريقه بحمد السيف . بينما أصبح الأتراك العثمانيون مجرد شرذمة من الحكام الأتراك المستبددين الذين لا يراعون الدين أو الخلق أو العهد . فكانت هذه الأمور عاملاً هاماً في توسيع الشقة بين الأتراك والعرب (٢) .

ولكن نلاحظ أنه بينما صدر حكم الأعدام ضد محمد بك (أمير راوندوز) ونفذ فيه بسرعة (٣) ، نجد صفوق يرسل هو وابنه فرحان إلى الآستانة ليعيشا هناك

(١) لم نستطع تحديد اسمه لعدم وروده في المراجع ولقصر فترة حكمه ولطفيلان تاريخ صفوق عليه .

(٢) Ainsworth : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, vol. II, p. 319.

(٣) محفظة عابدين ، ٢٥٦ - ٢ في ٣ محرم ١٢٥٤ / ٣١ مارس ١٨٣٨ ، محفظة ٢٥٦

عابدين ٢٥٦ - ٢ في ٢١ محرم ١٢٥٤ / ١٨ أبريل ١٨٣٨ .

Wood to Ponsonby, September 3, 1836 (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 679-695).

في النفي زهاء ثلاث سنوات . حقيقة كانت إقامتهما معددة إلا أنهما كانا يتمتعان برعاية خاصة من جانب المسئولين هناك .

ولا شك أن هذا الاختلاف في المعاملة ، كانت تتحكم فيها ظروف ذلك الوقت . وكانت ظروف جد عصيبة سواء بالنسبة للعثمانيين أو العشائر العربية أو العشائر الكردية . فقد أصبحت لدى العثمانيين حساسية شديدة ضد كل زعيم يتهم بالتعاون مع القيادة المصرية في الشام . ولكنهم إلى جانب هذا كانوا في حاجة ماسة إلى كل من يقدم معونة لهم ضد الوجود المصري في الشام . وفي هذا المجال اختلفت مكانة صفوق لدى العثمانيين عن مكانة محمد بك لديهم .

حقيقة كان محمد بك أميراً قوى الشكيمة حتى لقد كاد أن يسيطر على شمال العراق خلال العشرينات من القرن التاسع ، إلا أن فرص اتصاله بالقيادة المصرية في الشام أصبحت قليلة جداً بعد أن أصبحت الموصل قاعدة عثمانية بعد طرد يحيى الجليلي منها ، ومن ثم كان إعدام محمد بك يعني أن أقوى شخصية في ديار الكرد قد سقطت . وأنه على بقية الأمراء والزعماء الأكراد الآخرين أن يخضعوا للسلطان العثماني . ولقد كان في استطاعة العثمانيين أن يسيطروا على الإمارات الكردية إذا ما وضعوا أيديهم على مقر الإمارة الكردية .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى الحكومة العثمانية نية استخدام القوات الكردية ضد المصريين في الشام ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة ماسة إلى وجود زعيم قوى كردى ليتولى قيادة قواته الى الشام^(١) .

أما بالنسبة لعشائر شمر الجربا فالوقوف كان يختلف . فقد كانت الحكومة العثمانية في حاجة ماسة إلى القوات العشائرية الشمرية ، ومن ثم كان على العثمانيين أن يعملوا على كسبها إلى جانبهم ، ولو حدث أن أعدموا شيخها صفوق فإن ذلك سيؤدى إلى عدااء مستحكم يمنع من قيام تعاون قوى بينها وبين الحكومة . أما إذا أبقى على حياته ، وأعيد إلى منصبه فالآمال في أن يخدم السلطان تصبح محتملة التحقيق .

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الأكراد لم يكونوا متحمسين للانتقال إلى ميادين حرب بعيدة عن مواطنهم .

وترجع قبة عشائر شمر الجربا أيضاً إلى أن اتصالاتها بالقيادة المصرية يمكن أن تكون مباشرة حيث أن الجزيرة العراقية تربط بين العراق والشام . ومن ثم كان على العثمانيين ألا يثيروا حفيظة هذه العشائر في هذه الظروف حتى لاتنضم عشائر شمر بأسرها إلى المصريين . وحيث أنه كان من المتعذر على الحكومة العثمانية أن توجه ضربة حاسمة إلى شمر الجربا — على شاكلة تلك الضربة التي وجهتها إلى محمد بك أمير راوندوز — فإن إعدام صفوق كان سيعود بالمشكلات المعقدة وبالتالي يكون تجنب إهدامه خير للحكومة العثمانية من تنفيذه فيه .

ومن ناحية أخرى كان صفوق أكثر إدراكا لمشكلات المنطقة من غيره من شيوخ العشائر ، ومن ثم كان كسبه إلى جانب السلطان يعطى الحكومة العثمانية إمكانات كبيرة سواء من حيث الدفاع عن العراق أو الهجوم على الشام .

وإذا ما نجح العثمانيون في كسبه إلى جانبهم ، وفي خوض المعركة المقبلة في صف الجيش العثماني ، فإن النفقات التي ستدفعها عليه الحكومة ستكون قليلة حيث أن العشائر تتكفل بنفقات تحركاتها خاصة وأن ميدان المعركة المتوقعة ليس يبعد جداً عن الجزيرة العراقية .

وكان المسئولون العثمانيون يعتقدون أن إقامة صفوق فترة مناسبة في العاصمة العثمانية (الآستانة) ومشاهدته لروائعها ، وزيارته للسراى السلطاني الفخم سيغير من نظراته نحو الأتراك العثمانيين ولهذا كان من الأمور التي عني بها المسئولون الأتراك أن يرى صفوق ما يجعله يحترم الدولة العثمانية ويشعره بعظمتها واتساع ثرائها وقدراتها ، وأن يلقوا في قلبه الخضوع المطلق للسلطان العثماني . ولقد كان من بين الجهات التي قام صفوق بزيارتها السراى السلطاني نفسه . وعندما ذهب صفوق إلى هناك بهرته الرياش ومظاهر العظمة والملك وكان يتلفت يميناً ويساراً على عادة البدوي عندما يؤخذ بمثل هذه المظاهر ، وكان ذلك من دواعي اشتزاز كبار رجال السراى . ولكنهم أخفوا امتعاضهم ، لأنهم كانوا يسعون إلى كسب ثقته .

ويبدو أن مناقشات عديدة دارت بين صفوق والمسئولين العثمانيين بشأن موقفه في المستقبل من الصراع العثماني المصري . فقد أفرج عنه العثمانيون قبيل وقوع معركة

نزيب ١٨٣٩ . وأعادوا إليه المشيخة . وقام هو من جانبه بإعداد رحاله للمشاركة في الحركة المقبلة .

والمعروف أنه في أوائل ١٨٣٩ كان الجيش العثماني قد أخذ يتحشش بالقوات المصرية في شمال الشام حتى عبرت القوات العثمانية نهر الفرات ، وأصبح من الضروري خوض معركة حاسمة بين الطرفين . فكان من الطبيعي أن تراقب القيادة المصرية كل تلك التحركات وغيرها من التحركات التي قد تهدد الجيش المصري في الشام . وكان التهديد الموجهة إلى المصريين من جانب العراق قوياً . فقد كان وإلى الموصل العثماني (محمد اينجه يرقدار) على رأس بعض الكتائب التي عبرت نهر الفرات إلى خففته العربية ، كما كانت هناك الشائعات القوية التي تردد أن « علي باشا رضا » سيقود قوة كبيرة ليستترك بها مع الجيش العثماني الرئيسي الذي كان بقيادة حافظ باشا .

وجاءت الأنباء إلى القيادة المصرية أيضاً بأن عشائر شمر الجربا بقيادة صفوق مستنشر على طول المنطقة الممتدة بين حماه ودير الزور . ولو ألقينا نظرة سريعة على هذه المنطقة — التي قيل إن صفوق سيتولى أمرها — لوجدناها تلامس حرب الصحراء التي كانت تتقنها تلك العشائر العربية . وأغلب الظن أن الخطة العثمانية وضعت على أساس أن تعمل العشائر العربية وراء خطوط مواصلات الجيش المصري منطلقة من قواعد الصحراوية (١) .

ويبدو أن القيادة العثمانية كانت قد عولت كثيراً على ما سيقدمه صفوق من مجهودات عسكرية ، حيث أن حافظ باشا — القائد العام للجيش العثماني — بعث ابنه ليكون مع صفوق في تلك الجهات (٢) .

وتشير التقارير المديدة التي تلقىها القيادة المصرية عن تحركات قوات شمر إلى أن هذه القيادة كانت قد أولت عناية كبيرة جداً لتحركات هذه العشائر . وهذا يرجع إلى أن عيون المصريين في العراق كتبوا يقولون أن هذه القوات الشمرية هي أخطر ما في المراق من القوات الضاربة ، وأن ما لدى « علي باشا رضا » وإلى بغداد

من قوات ليست سوى قوات من المرتزقة (الباشيورك) . أما عشائر شمر الجربا فكانت كثيرة العدد سريعة الحركة قادرة على إنزال خسائر كبيرة بالقوات المصرية في وسط الشام ، في الوقت الذي يكون فيه الجيش المصري منشغلا في المعركة . وقد وصفت القيادة المصرية خطورة التحركات الشمرية بشكل دقيق عندما قالت أن تلك الشائر لو انطلقت من نهر الفرات صوب الشام فإنها ستحول المنطقة الممتدة « من المرة إلى الشام خراباً بلبعاً »^(١) .

ولقد كان انتقال القوات الشمرية من الجزيرة العراقية إلى ضفاف نهر الفرات أمراً يسيراً حيث أنها كانت تسير في طرق صحراوية اعتادت على مثلاتها . ولكن لكي تنتقل هذه القوات إلى الضفة الغربية عبر نهر الفرات كان لابد لها من استخدام عدد من السفن . فطلب صفوق من حافظ باشا — قائد عام القوات العثمانية — أن يزوده بالسفن اللازمة لنقل قواته . ولكن اعتذر له حافظ باشا بأن جميع السفن التي كانت تحت يده منهكة في نقل الجيش الرئيسي من الضفة نهر الفرات الشرقية إلى ضفته الغربية . فاضطر صفوق إلى الانتظار بعض الوقت حتى يتمكن من تمديد قواته^(٢) .

كان على القيادة المصرية في الشام أن تواجه قوات شمر الجربا بقوة كافية لردّها إذا هاجمت منطقة حماه . وكان في حماه حينذاك الآلايين من الفرسان . وبسبب توقع هجوم شمرى على حماه فقد تقرر عدم اشتراك هذين الآلايين في المعركة المقبلة . بل صدرت إليهما الأوامر بعدم التحرك من حماه والدفاع عنها .

وبعد دراسة أخرى للامكانيات الدفاعية المصرية ضد القوات العشائرية الشمرية وجد القائد العام للجيش المصري (ابراهيم باشا) أن هذين الآلايين لا يكفيان لصد هجوم كبير شمرى . فطلب إبراهيم باشا من أخيه « عباس باشا » أن يبعث إليه من

(١) من ابراهيم إلى عباس ١٥ صفر ١٢٥٥ / ١٨٣٩م ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة تركية - ١ .

(٢) من محمد مجونى في ٢٠ صفر ١١٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة - ١ .

من محمد مجونى في ٢٧ صفر ١٢٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة .

من محمد مجونى في ١٢ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ ، حفظة ٢٥٧ عابدين - ١ .

مصر بالآلايين الرابع والعشرين والحادى والثلاثين وبطاريق مدافع وبعض القوات العشائرية . ويبدو أن إبراهيم كان يرى أن الدفاع عن حماه يجب أن يكون بالقوات النظامية . وإما قتال شمر في الصحراء أو مطاردتها ليس في مقدور هذه القوات النظامية وإنما يجب أن تقوم به قوات بدوية مهدت في حرب الصحراء على شاكلة شمر الجربا نفسها .

ولكن تبين أن سحب هذين الآلايين من مصر يعنى تجريدتها من قوة دفاعية لازمة لمواجهة الطوارئ . ولاشك أن تجريد مصر من قوة عسكرية دفاعية منظمة يعنى تعريض قلب البلاد المصرية لخطر دائم لو حدث ونزلت قوات معادية إليها ، ومع هذا وجد « إبراهيم » أن ظروف المعركة المقبلة ، وتهديد شمر للحما يقتضى إرسال هذين الآلايين وبطاريق مدافع إلى الشام على أن تدبر حكومة القاهرة قوات جديدة للدفاع عن مصر عند الحاجة إلى ذلك . ولهذا اقترح إبراهيم تسليح عمال الورش بالبنادق وتدريبهم على الأعمال العسكرية (١) .

وحيث أن التقارير الواردة إلى القيادة المصرية عن تحركات « شمر الجربا » كانت مضطربة ، وكانت هناك إشاعات عن أن صفوق قد لا يشترك في المعركة المقبلة فإن المسؤولين في القاهرة تباطأوا في إرسال القوات التي طلبها إبراهيم . ولكن لم تلبث التقارير أن أكدت أن صفوق عبر نهر الفرات بقواته صوب زيب . وأصبح على المسؤولين في القاهرة تدارك الأمر بسرعة ، فأرسلوا على جناح السرعة الآلاى (الحادى والثلاثين) إلى الشام ومعه بطاريق مدافع وقوات عشائرية مصرية (٢) .

وعلى أى حال ، كانت عشائر شمر الجربا أداة من أدوات تشتيت الجهود الحربية المصرية . ولكن المعركة الحاسمة التي كانت ستقرر مصير المنطقة هي تلك التي كان يستعد لها الجيشان المصرى والعثمانى بالقرب من زيب . ولقد دارت المعركة فعلا في ٩ يونيو ١٨٣٩ وانتهت المعركة باندحار شامل للجيش العثمانى .

(١) من ابراهيم إلى عباس : ١٥ صفر ١٢٥٥ / ١٨٣٩ ؛ محفظة ٢٥٧ عابدين

وثيقة - ١ .

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة - ١٢ ؛ من الملية إلى السر عسكر في ١٩ ربيع الأول

١٢٥٥ هـ دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٩ .

وخلال هذه المعركة كانت عشائر « شمر الجربا » قد أصبحت على مقربة منها . وشاهد رجال شمر كيف نزلت الهزيمة الحاسمة بالعثمانيين . وأغلب الظن أن صفوق لم يلق بقواته في المعركة ولكن موقفه بعدها أصبح حرجاً ، فهو من وجهة نظر القيادة المصرية المنتصرة كان مع جيش العدو . ومن ثم فيجب مطاردته هو الآخر . وفعلًا وجهت القيادة المصرية ضد شمر قوة من العشائر التي جاءت مصر لغرض مقاتلة العشائر الموالية للعثمانيين . وكان صفوق قد أدرك أن لا قبل له بالتصدي للجيش المصري المنتصر ، فانسحب بقواته مسرعاً تاركاً دواب عشيرته لدى بعض العشائر الخليفة له^(١) . ولما لم يجد القوات المصرية أثراً لعشائر شمر الجربا أنزلت العقاب بالعشائر التي أخفت دواب شمر لديها^(٢) . وكان طبيعياً أن تكون المطاردة محدودة الأهداف حيث أن الحكومة المصرية كانت لا تفكر في مد سيطرتها على العراق .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٨٣٩ — ١٨٤٢ فترة تحول خطيرة في تاريخ المشرق العربي . فقد أدت هزيمة العثمانيين في زيب إلى إقناع الحكومة العثمانية بأنها لن تستطيع التغلب على المصريين إلا بالتعاون مع القوى الأوروبية الكبرى . وكانت انجلترا مستعدة للتدخل لصالح السلطان العثماني وضد مصالح مصر الفتية حتى تضمن انجلترا لنفسها اليد العليا في المشرق العربي . وفعلًا تدخلت الدول الكبرى — بتوجيه من انجلترا — وفرضت على مصر الانسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

وترتب عن انسحاب المصريين من المشرق العربي أن تفرغت الحكومة العثمانية — إلى حد كبير — لتحقيق سيطرتها على ولاياتها العربية عن طريق القضاء على المصالحات المحلية فيها . وقد تولى تنفيذ هذه السياسة في العراق نجيب باشا والي بغداد الذي خلف علي باشا رضا في عام ١٨٤٢ م . واستمر في منصبه حتى عام ١٨٤٧ .

(١) من محمد معجوني إلى إبراهيم باشا ٢٩ جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ / ٩ سبتمبر ١٨٣٩ ،

مخططة ٢٥٨ عابدين ص ١ .

(٢) إبراهيم إلى محمد معجون : ٧ رجب ١٢٥٥ / ١٧ سبتمبر ١٨٣٩ ، مخططة ٢٥٨

عابدين ص ١٤ .

ولقد كانت الظروف تضع كلا من نجيب وصفوق على طرفي تقيض . فقد كان نجيب باشا يسعى إلى القضاء على العصبيات المحلية بينما كان صفوق — منذ هزيمة العثمانيين في نزيب — يستخف بهم ثائراً عليهم^(١) . وكان من المنتظر أن يوجه نجيب باشا جهده ضد صفوق ولكن نجدهم على العكس من ذلك . ففي الوقت الذي أقدم فيه نجيب باشا على إعدام سليمان الغنام — شيخ عشائر العقيل^(٢) — نجده يحاول أن يحسن من علاقاته مع صفوق . ويبدو أن نجيب باشا كان قد أضمر في نفسه القضاء على صفوق ولكنه آثر أن يخفي أهدافه هذه إلى أن تحين الفرصة ولهذا أعاد صفوق إلى مشيخة الجربا وخلص عليه^(٣) .

ويبدو أن صفوق اعتقد أنه يستطيع الحصول على إمتيازات جديدة من نجيب باشا في مثل هذه الظروف . وقملاطلب صفوق ذلك منه . ولكنه وسط الوكيل السياسي الإنجليزي في بغداد الميجور روبرت تيلر R. Taylor لدى نجيب باشا من أجل الحصول على طلباته^(٤) .

ونعم أننا لاندري هل نجح روبرت تيلر في وساطته أم لا ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الوساطة أساءت إلى صفوق ، فقد كان الولاة العثمانيون سيئو الظن بتلك العلاقات الودية التي كانت بين الدبلوماسيين الإنجليز والزعامات المحلية^(٥) .

(١) A.H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1848, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Taylor to Secret Committee, November 24, 1842 (Political and Secret Department Records, Letters from Agent at Bagdad, vol. 13, pp. 115-117.

(٣) Taylor to Secret Committee, August 22, 1842 (Ibid., pp. 81-85).

(٤) Taylor to Secret Committee, October 18, 1834 (Pol. and Sec. Dep. Recs., Lets. fr. Pol. Ag. at Bag., vol. 13, pp. 231-235).

(٥) زادت هذه الظاهرة بوضوح في القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ناصر السعدون — شيخ عشائر المنتفق — أن يقبل دعوة ناصق باشا له إلا بعد أن حصل على تأكيد سلامته من القنصل الإنجليزي في بغداد . كذلك وسط « مطلق آل كريدى » — شيخ عشائر —

ويبدو أن نجيب باشا كان يدبر المتاعب لصفوق ومن جهة أخرى كانت أحوال صفوق نفسه في تدهور مستمر منذ مجيء نجيب باشا إلى العراق. فقد ظهر منافس خطير لصفوق في شخص «نجريس» المطالب بالمشيخة. وكثيراً ما واجه صفوق مثل هذه المواقف، ولكنه في هذه المرة كان يبدو ضعيف الجانب أمام خصمه «نجريس» الذي استطاع أن يكسب إلى صفه قسماً كبيراً من العشائر.

وخلال هذه الأزمة بدا واضحاً أن صفوق في حاجة إلى قوة تشد أزره لكي يستعيد سيطرته الكاملة على عشائره. ويبدو أن صفوق وجد أنه لو قدم خدمات لنجيب باشا ربما استطاع أن يستعيد قوته وانفرد بالمشيخة. ولهذا أبدى صفوق استعداداً لمساعدة نجيب باشا في صد عشائر عنزة التي هبطت الجزيرة المراقية غازية ناهبة. ولكن نجيب باشا فضل أن يواجه عنزة بإمكانياته هو وبقوة المشائير البدوية الموالية له حتى لا يمكن صفوق من استعادة تفوقه وقوته^(١).

ولقد زاد موقف صفوق بعد ذلك تدهوراً بسبب بعض الأمور التي كانت خارج إرادته. فقد ضعفت الطبيعة على مراعي شمر بالأمطار لمدة عامين متتاليين حتى لقد أصبح صفوق نفسه في عوز شديد لدرجة أنه اضطر إلى بيع «خلخال» زوجته^(٢) في الموصل ليشتري به قمحاً^(٣).

ووجد نجيب باشا في هذه الظروف فرصة مواتية لإرهاق آل محمد (البيت الحاكم في شمر الجربا) إرهاقاً قد يمهّد للقضاء على صفوق. فقد كان المعتاد أو يتخذ

== الخزانة - الفصل العام الفرنسي في بغداد ليشرح قضيته ليصنئ المشاكل بينه وبين والي بغداد انظر: .

Kemball to Erskine, February 24, 1864, No. 4, Précis of Turkish Arabia, Paragraph No. 142, F.O. 195/803, A. and Rawlinson to Secret Committee, December 26, 1843 (Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf, vol. 13, pp. 243-254).

Rawlinson to Canning, June 10, 1842 (Pol. and Sec. Rec. (١) Dept., Sec., Lets. fr. Ag. at Bagdad, vol. 14, pp. 55-63).

(٢) من عادة فتيات وسيدات العراق لبس الخخال الذهبي ويسمى في العراق (حجل)،

حجول.) -

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 93-97. (٣)

والى جانب أحد المتنافسين على المشيخة ، ولكن نجيب باشا لم يأخذ جانب صفوق ولا جانب نجريس وإنما أسند مشيخة شمر الجربا إلى فرحان بين صفوق ، وأخذ نجيد تحت فرحان على أن يثبت مقدرته على الوقوف على قدميه في مواجهة كل من أبيه صفوق ، وعمه نجريس . ولكن « فرحان » لم يسر في هذا الطريق الذي رسمه نجيب باشا له . وظل مخلصاً لأبيه ولفكرة وحدة العشيرة تحت زعامة صفوق . بل لقد حاول « فرحان » أن يصفى المشاكل التي كانت بين صفوق « ونجريس » حفاظاً على كيان البيت الحاكم وطى كيان العشائر الشمرية ويبدو أن صفوق وجد في هذا السعى الحميد فرصة لتحقيق أهدافه :

لقد وجه « صفوق » دعوة « نجريس » لمقعد اجتماع كبير لشيوخ عشائر شمر لتصفية الضغائن ولكن نجريس رفض قبول الدعوة لأنه كان يدرك أن « صفوق » مستعد لأن يقدم على أى عمل طائش في سبيل استعادة انفراد بالمشيخة . ولكن صفوق أصر على أن يكرر الدعوة إليه ، وبث بابته فرحان ليطمئنه وإيزيل ما لديه من مخاوف .

ولقد كان « فرحان » يخشى أن يحث أبوه بوعود ، وأن يغدر « بنجريس » فيعمله وزر هذه الوساطة . ولذلك أخذ « فرحان » المهود على أبيه بالأصيب نجريس بأى أذى إذا ما حضر الأخير في صحبته . وعلى هذا الأساس ذهب « نجريس » مع فرحان إلى الاجتماع ، ودخل خيمة صفوق ، وجلس الرجلان كل بجانب الآخر . وبعد فترة وجيزة استل صفوق سيفه وقتل نجريس رغم توسلات فرحان (١) .

لقد كان صفوق يعتقد أنه بقتل نجريس — مهما كانت الوسيلة — يستطيع أن يستعيد السيطرة الكاملة على عشائر شمر الجربا . ولكن ذلك العذر لم يكن مقبولا لدى العشائر البدوية الأمر الذى أدى إلى زيادة ضعف مكانة صفوق عن ذى قبل . وأخذت العشائر الشمرية تنعاز إلى مطالب جديدة بالمشيخة هو « عيوضة » النهري ثبت أقدامه في نواحي سنجار وشمال العراق .

Kemball to Cowley, September 20, 1847, F.O. 195/272. (١)

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114. (٢)

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114. (٣)

وعندما علم نجيب باشا — والى بغداد — بما أقدم عليه صفوق نحو نجرس لم يلق اللوم على صفوق ، وقبل من صفوق أعذاره ومبرراته ، بل وثبته في المشيخة ، وأردف ذلك بأن أرسل إليه قوة عسكرية حكومية تحت قيادة « إبراهيم أغا » .

لقد كان نجيب باشا يلعب لعبة كبيرة . واختياره إبراهيم أغا بالذات ليتولى قيادة القوات الحكومية المداخلة لصفوق كان الخطوة الأولى في تنفيذ مؤامرة مدروسة ضد صفوق^(١) . فقد كان « إبراهيم أغا » هذا ضابطاً من ضباط (الهايتا) . وكان « إبراهيم أغا » شركسياً مسيحياً ثم أسلم . واشتهر بتنفيذ مؤامرات ناجحة ضد الزعماء الوطنيين الثائرين على السلطان العثماني . وكان الرجل ماهراً في التخلص من هؤلاء الزعماء بطريقته الخاصة . فكان يحتال بطريقة أو بأخرى لكي يصل إلى مجلس الأمير الثائر ، ثم يتقضى عليه فيصرعه بضربة من سيفه تقضى عليه أو بإطلاق الرصاص عليه فينتهى أمره في سرعة خاطفة ، ثم يعلن أن ذلك كان بأمر السلطان العثماني ، ويأخذ رأس الضحية وينصرف بها إلى المسؤولين العثمانيين الذين كانوا ينتظرون نجاح مهمته . وهذا ما فعله مع شيخ « زاخو »^(٢) .

تلك كانت مهارات « إبراهيم أغا » ، وذلك كان تاريخه ، ويبدو أن صفوق لم يكن يعرف عنه شيئاً حيث أنه قد عزم على الاعتماد عليه في بعض العمليات العسكرية بينما كان « إبراهيم » خلال وجوده لدى صفوق يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المؤامرة .

وجاءت هذه الفرصة عندما اشتبكت قوات صفوق — بقيادة ابنه فرحان — مع عشيرة ثائرة . وعند ما ابتعد فرحان بقواته ، انقض « إبراهيم أغا » على صفوق فصرعه وقطع رأسه وأخذها معه إلى بغداد . وهكذا كانت نهاية « سلطان البر »^(٣) .

ويجدر بنا هنا أن نقيم أعمال صفوق : هل كانت كل تلك الحركات الكبرى التي قام بها صفوق من أجله هو فقط ومن أجل مصلحته الشخصية أم أنها كانت

(١) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

(٢) أصبحت زاخو (في شمال العراق) منذ ذلك الوقت تحت الحكم المباشر العثماني .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

أيضاً من أجل عشيرته ورفع شأنها بين مختلف العشائر ؟ كما نتساءل أيضاً : ألم يكن صفوق أبداً هذفاً وأعمق فكرة عندما دافع عن العراق ضد الفرس ، وعندما تعاون مع القيادة المصرية في الشام ضد الحكم العثماني في العراق .

لا شك أن صفوق كان — رغم بداوه — من معدن فريد بين شيوخ العشائر . وأنه كان واسع الأفق إذا ما قورن بغيره من شيوخ العشائر الآخرين . وذلك لطول احتكاكه بالقرى العديدة التي كانت في داخل العراق وخارجه . ولا شك أن صفوق شعر بقيمة العراق له ، وبقيمته للعراق ، وأنه شخصية بذلت الكثير من أجل العراق فيحق لها أن تشارك في أموره وتوجيه سياسته .

ولكن سيطرة الفكر البدوي عليه ، وعدم قدرته على الارتفاع — بسبب ذلك — إلى مستويات الدبلوماسية المالية حينذاك كان يحول دون وصوله إلى مركز كبير في مجالات الحكم والإدارة . ثم إنه كشيخ عشيرة بدوية كان ينظر إليه من جانب أهل المدن بين القدر والريية ، لأن البدو بالنسبة لأهل المدن — كانوا خطراً دائماً لا يجب أن تفتح المدينة لهم أبوابها وإلا استباحوها .

ولقد كان لصفوق عمليات قاسية ضد بعض المدن العراقية مثل بغداد وتكريت ، حتى أن أهل تكريت اضطروا إلى أن يحفروا خندقاً للدفاع عن المدينة ضد هجماته (١) .

ومن ثم لم يكن صفوق يمتلك مقومات الزعيم الوطني القادر على أن يحل محل الحكم العثماني . إلا أن مصرعه على تلك الصورة كان عاملاً هاماً جعل صفوق أسطورة البادية ، كما أنها عمقت الهوة بين الأتراك وآل محمد (شيوخ ثمر الجربا) (٢) .

وبعد مصرعه صفوق أسند نجيب باشا مشيخة عشائر ثمر الجربا إلى عيوضه الذي كان أقوى من نافس صفوق . بينما كان فرحان بن صفوق قد فر من وجه الحكومة حتى لا يلقى نفس مصير أبيه . ولكن سرعان ما غير نجيب باشا رأيه وعزل عيوضه وأسند المشيخة إلى فرحان (٣) . وأغلب الظن أن نجيب باشا لم يفعل

Jones, J.F. : Selections from the Records of the Bombay Government No. XLIII. Memoirs Bombay, 1857, p. 23. (١)

Rawlinson to Cowley : October 27, 1847. F.O. 195/272. (٢)

Sakdanha : Precise of Turkish Arabia, August 25, 1849, Nos. 25-26 ; Kemball to Cowley : September 29, 1947, F.O. 195/272. (٣)

هذا إلا ليستعيد ثقة عشائر شمر الجربا التي كانت متعلقة بصفاق وبإيجاده رغم أخطائه في أواخر أيامه . ثم أن فرحان نفسه كان صاحب تجارب وخبرات وصفات تجعله جديراً بالمشيخة سواء لدى الحكومة العثمانية أو لدى أهل العشائر أنفسهم .

فرحان هو أحد أبناء صفاق من زوجته الحضرية . وقد شارك أباه سنوات النفي في الآستانة (١٨٣٤ - ٨) . ويبدو أن مظاهر الأبهة والعظمة التي شاهدها في العاصمة العثمانية جعلته يعتقد أن الدولة العثمانية لا تقهر . ومن ناحية أخرى اعتقد في ضرورة إيجاد أسس قوية للتفاهم بين الحكومة العثمانية في العراق والعشائر البدوية .

والحق ، إن أفكار الشيوخ العشائريين في القرن التاسع عشر كان قد أصابها تغير واضح عنها في القرون العثمانية السابقة . فلقد هبت على العراق في القرن التاسع عشر تيارات عديدة قوية كانت تهز أفكار الناس هزاً ، وكانت الأزمات الكبرى التي تقع فيها الدولة العثمانية تصل بعض أنبائها إلى العراق ، وكان ظهور القوى الأوروبية بوضوح في الخليج العربي والشام من الأمور التي جعلت الزعامة الوطنية في الشرق العربي تعيد النظر في بعض أفكارها وإتجاهها . وكانت الدولة العثمانية نفسها تحاول أن تغير من طريقة حكمها ومن أساليب الإدارة لعلها تستطيع أن تصل إلى مستوى مصر .

ولا شك أن التغيرات التي طرأت على الدولة بسبب الإصلاحات والتنظيمات قد أثرت في أفكار شيوخ العشائر فجعلتهم يختلفون إلى حد ما عن أسلافهم في القرون العثمانية السابقة ويثمل فرحان نموذجاً لهذا النوع الجديد من الشيوخ الذين حاولوا التفاهم مع الحكومة وأن يحافظوا على كيان عشائرهم في آن واحد . فكان طبيعياً أن يجد نفسه في كثير من الأحوال يعيش في تناقضات شديدة ويعاني من إتجاهات متعارضة كل التعارض .

ولقد كان فرحان مخلصاً في أن يأخذ ببعض سياسات الحكومة وخاصة السياسة الهادفة إلى إستقرار العشائر في أرض محددة تقوم فيها بالأعمال الزراعية ، فتكف العشائر بالتالي عن عمليات الغزو ، وتصبح مصدر إنتاج وعاملاً من عوامل الهدوء في المنطقة . ولقد أدى ذلك إلى أن يزداد التفاهم بين فرحان والحكومة حتى لقد

أقدمت الأخيرة على خطوات هامة في هذا الصدد فقد اتفقت الحكومة معه على أن يحصل على مرتب شهرى ينفق منه على نفسه وعلى أسرته في مقابل عدم الأقدام على أية تحركات عسكرية ضد العشائر المجاورة وضمان الهدوء في ديرته^(١) . ولقد سار هذا التفاهم بين فرحان والحكومة إلى دجات بعيدة . فقد شارك فرحان الحكومة في الضغط على عشيرة حمود — وهى عشيرة شميرية — لإرغامها في رد ماسلبته من أموال الحكومة^(٢) .

ومن ناحية أخرى طلبت سلطات الآستانة — في محاولاتها للتفاهم مع القوى العشائرية — من وإلى الموصل أن يبعث ثلاثة من أولاد الأعيان ومن أسرة الجربا الحاكمة ليقموا في الآستانة وليلحقوا بمدرسة العشائر التى كان الهدف منها ربط شيوخ المستقبل بالولاء للسلطان العثمانى .

ولكن المشكلة العويصة هى : هل كانت العشائر الشميرية على استعداد لقبول تلك الاتجاهات التى كانت تعتبر تقدمية إلى درجة كبيرة حينذاك .

والحق ، كانت هناك عدة عوامل تحول دون نجاح فرحان في إقناع كل عشائره بالسير في تلك الاتجاهات . وأولى هذه العوامل أن عشائر شمر الجربا كانت كبيرة العدد ، ومراعيتها المترامية في الصحراء لا تدخل ضمن الوادى المزروع . والمعروف أن العشائر البدوية عرضة في كل وقت لانفصال بعض أجزائها عنها الأمر الذى يجعل موقف شيخ العشيرة حرجا ، حيث أنه يظل مشغولا عن أعمال تلك العشائر رغم انفصالها عن بيت الرئاسة .

ومثل هذه الظروف كفيلة بأن تخلف الزعيم الذى ينافس فرحان ويتطلع إلى المشيخة . ولقد تعرض فرحان لأزمات شديدة من هذا القبيل . فقد اتخذ أخوه نايف طريقاً خاصاً به على رأس بعض العشائر الشميرية مثيراً الفوضى والأزمات

Kemball to Bulwer : No. 27, Sept. 25, 1861, F.O. 195/676. (١)

Ross : Letters from the East, p. 61 ; Walpole : vol. I, pp. 339-340 ; Layard : Discoveries, pp. 268-269. (٢)

Rassam to Canning : No. 8, April 25, 1852, F.S. 195/394.

Rassam to Bulwer : Sept. 28, 1863, F.O. 195/752. (٣)

ليثبت للحكومة أن فرحان عاجز عن القيام بواجبه كشيخ العشائر. شمر الجربا لعل ذلك يؤدي إلى صدور قرار بزمه . ولكن يبدو أن نايف كان غير قادر على التغلب على فرحان ولا بالقادر على أن يفرض نفسه على الحكومة ، فلم تلبث تمرداته إن هدأت بعد وقت قصير (١) .

وإذا كانت تمردات « نايف » قليلة الخطر على فرحان أو على تماسك عشيرة شمر الجربا ، فإن تمردات أخيه الثاني « عبد الكريم » كانت على جانب كبير من الخطورة ، حيث أن التنافس بين « فرحان » و « عبد الكريم » لم يكن تنافساً على المشيخة فقط — مثلاً كان عليه الحال من قبل — وإنما كان يقوم على أساس اختلاف وجهات النظر بالنسبة لمستقبل العشيرة ، وقد برزت هذه الخلافات بصورة خطيرة عندما تولى مدحت باشا — المصلح التركي المشهور — حكم بغداد ، ١٨٦٩ (٢) .

فقد عقد مدحت باشا العزم على أن ينفذ سياسة تؤدي إلى استقرار العشائر في الزراعة . ولهذا عرض على « فرحان » مساحة مناسبة من الأراضي الزراعية لتستقر فيها عشيرته بالقرب من نهر دجلة . وقد قبل فرحان هذا العرض الأمر الذي شجع مدحت على المضي في مشروعه . ولكن فيما كبرياً من العشائر الشمرية لم يقبل هذه السياسة . فكان ذلك فرصة سانحة لظهور زعامة جديدة تدافع عن وجهة نظر هذه العشائر . وكان عبد الكريم — أخو فرحان — معترضاً على تلك الاتجاهات

(١) Kemball to Bulwer : No. 2, January 30. 1861, F.O. 195/676.

وتجدر الإشارة إلى أن عشائر شمر كانت تتعرض من وقت لآخر لضغط عنيف من جانب عشائر عنزه عدوتها التقليدية . ولقد تعرضت شمر الجربا لتمديدات عنيفة من جانب عشائر عنزه في ١٨٥٨ في نواحي الموصل . ويبدو أن فرحان طلب من والي بغداد أن يعبر بمشائره إلى ماوراء بغداد ، ولكن والي رفض لأنه كان يخشى من الفوضى التي ستترتب عن انتقال شمر إلى تلك الجهات ، وهذا يدلنا على أن عشائر شمر الجربا تحمت قيادة فرحان كانت أضعف شوكة منها عندما كانت تحت قيادة صفوق .

انظر :

Kemball to Bulwer : No. 2, January 30, 1861, F.O. 195/676.

Kemball to Allison : No. 5, February 8, 1858, F.O. 195/577.

Kemball to Lyons : No. 41, October 17, 1866 (Précis of Turkish Arabia. pp. 72-73). Kemball to Bulwer, January 30, 1861, No. 2, F.O. 195/676.

(٢) حكم حتى ١٨٧٢ .

الحكومية . فزع عبد الكريم ثورة كبيرة ، ونادى في العرب أن مشروعات مدحت باشا لا تهدف إلا إلى القضاء على تقاليدهم البدوية — التي هي خير من أية تقاليد أخرى من وجهة نظره . كما دعا العرب إلى أنه قد آن الأوان لأن يقف العرب وقفة رجل واحد ضد الحكومة التركية . ولقيت نداءاته هذه آذاناً مصفية لدى المشائير التي تمسكت بيداوتها^(١) .

وكانت العلاقات الاجتماعية ذات أثر كبير في تصاعد الحركة الثورية التي قام بها عبد الكريم . فقد كان عبد الكريم معترفاً بأن أمه هي عمشة العربية الأصلية ، بينما كان فرحان من زوجة أخرى لصفوق كانت حضرية . وكان عبد الكريم يفخر بأنه لم يذهب إلى الآستانة ولم يتطبع بطبائع الأتراك . وكان العرووف عن فرحان أنه قد تقلد الرتب العثمانية ، كما كان عبد الكريم ينمى على أخيه فرحان أنه كان يأخذ مرتباً شهرياً من الحكومة^(٢) . ومثل هذه الدعايات تستطيع أن تجذب إليها الأسماع في ذلك المجتمع العشائري حينذاك . ولكنها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تكسب كل القلوب ، حيث أن الفترة كانت فترة انتقال . وكان الناس يريدون التطور والتقدم وهم عاجزون عنه ، وخائفون على تقاليدهم من ذلك التطور والتقدم كانوا معترزين بأنفسهم ويرغبون رغبة صادقة في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . ولكنهم أضعف من أن يفرضوا ذلك على الحكومة العثمانية ذات الإمكانات العسكرية الواسعة . ولهذا انقسمت العشائر الشمرية بشدة على أنفسها ولكن في تردد واضطراب ، فلا استطاع فرحان أن يقنع عبد الكريم بخطيء مسعاه ، ولا استطاع عبد الكريم أن يقنع فرحان بفكرته . وظل كل منهما متمسكاً بقضيته .

وهناك أسباب أخرى قيل أنها أدت إلى ثورة عبد الكريم ومنها ما ذكره الفصل البريطاني في بغداد هربرت فقد قال إنه كان من المتعارف عليه أن يدفع العقيل — أدلة القوافل العاملة بين العراق والشام — مبلغاً من المال إلى شيوخ شمر لضمان سلامة القوافل أثناء مسيرتها في أراضي شمر . ولكن يبدو أن «العقيل» قدموا المبالغ السنوية لفرحان وليس لعبد الكريم . فاقض عبد الكريم على إحدى

Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(١)

Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(٢)

القوافل ونهبها باديةً بذلك ثورته^(١).

وقد كان مدحت باها شديد الحساسية لأى تهديد اطرق المواصلات التجارية بين العراق والشام حيث أنه كان معنياً كل العناية بتأمين هذه المواصلات البرية والنهرية عاملاً على رفع العراق إلى المستوى الذى يستطيع به أن ينافس قناة السويس طريق المواصلات العالمية. فلقد أدى افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ إلى حث الحكومة العثمانية ومدحت باشا إلى العمل على تنشيط التجارة العالمية عبر العراق^(٢) وهذا لا يتأتى إلا باستتباب الأمن فى الطرق الهامة للمواصلات عبر العراق. ومن ثم كانت تحركات عبد الكريم تثير الاضطراب فى المشروعات العثمانية.

ومن ناحية أخرى وقعت ثورة عبد الكريم فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية قد تحركت من العراق للسيطرة على الإحساء^(٣) فأعلن مدحت أن عبد الكريم أصبح خارجاً على القانون وأعد العدة لتوجيه ضربة قوية له (١٧/٧/١٨٧١) ، وأعلن عن مكافأة قدرها عشرة آلاف قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حياً ، وب نصف هذه المكافأة لمن يأتيه به ميتاً^(٤).

ويبدو أن الخطوات التى اتخذها مدحت ضد عبد الكريم كانت سرية المفعول فقد أخذت العشار تنفض عنه حتى أصبح من الواضح أنه لا يستطيع الصمود طويلاً أمام قوات الحكومة. ومن ناحية أخرى كان مدحت متمسكاً كل التمسك بتطبيق القانون على عبد الكريم ليكون ذلك عبرة لغيره من الشيوخ الذين يفكرون فى التمرد على الحكومة العثمانية.

وبعد وقت قصير وجد عبد الكريم أن بقاءه فى العراق يعرضه لخطر داهم

(١) Herbert to Elliot : July 17, 1871, F.O. 195/949.

(٢) حيدر مدحت ، تيموره عزت ، ٩٨ ، يعقوب سر كيس ، مباحث عراقية ج ٢ ، نية ٢٧٧ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الحملة فى F.O. 195/949. ومجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة ٢٧ الحملة موجودة بمكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس على ميكروفيلم . وانظر الفصل الحادى عشر من كتابنا « تاريخ العراق الحديث » .

(٤) Herbert to Elliot, No. 32, July 17, 1871 ; No. 36, August 2. 1871, F.O. 195/949.

فمزم على الرحيل إلى جبل ممر - للوطن الأصلي لعشيرته - وكان جبل شمر حينذاك تحت حكم آل رشيد . وكان آل رشيد يقدرّون تماماً أن الدولة العثمانية عازمة على أن تفرض سيطرتها بقوة على العراق وما جاوره ، ويشاهدون عن كثب تدفق القوات العثمانية على الإحساء (١٨٧١)^(١) ، وكذلك مساعى مدحت لإقصاء البيت السعدي عن الحكم في الإحساء ونجد . ومن ثم كان وقوف آل رشيد بجانب ثورة عبد الكريم أو إيوائهم له قد يعرضهم لنقمة مدحت .

لقد سارع مدحت منذ البداية إلى توجيه تحذير شديد اللمحة إلى آل رشيد طالباً منهم عدم إيواء عبد الكريم إن قدم عليهم . وبهذه الخطوة يكون مدحت قد أحكم الحلقة حول عبد الكريم . ومن سوء حظ عبد الكريم أنه أصيب بمجرع أضعف من قدراته على الحركة وأخيراً وقع في يد ناصر السعدون - شيخ عشائر المنتفق - الذي لم يتوان عن تسليمه إلى مدحت باشا^(٢) .

وتلقى آن بلنت A. Blunt لوماً شديداً على ناصر السعدون لأنه سلم عبد الكريم إلى رجال الحكومة^(٣) . والواقع أن عبد الكريم - من وجهة نظر الحكومة - كان مجرد نائر خطر عليها ، فمن يعاونه أو يخفيه كان سيعرض نفسه للعقوبات الجنائية التي كان مدحت حريصاً على تطبيقها في مثل هذه الظروف . ولقد كان ناصر السعدون مشغولاً عن الأمن في منطقة المنتفق ، ومشغولاً عن التعاون مع الحكومة . ومن ثم فإن ناصر السعدون قام بواجبه في هذا الصدد . ولكن للموضوع وجه آخر . وهو أن العرب اشتهروا بحماية بني جلدتهم من رجال الحكومة الأتراك . والحق ، لقد كان الوقت عبارة عن فترة انتقال من الولاء للفرع العثماني إلى الولاء للفرع العربي . وفترات الانتقال تكون عادة مليئة بالمتناقضات . فلقد كان ناصر السعدون بين نارين : هل يحكم الماطفة ورابطة الدم أم القانون التركي ؟

Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, p. (١)

A. Blunt : Bedouin Tribes. vol. I, pp. 122-123. (٢)
1129.

Ibid (٣)

وكان قراره هو تسليم عبد الكريم إلى الحكومة لأنه كان مسئولاً أمامها ، وقد يمرض عشائر التتق لتتابع قاسية إن هو عارض سياسة الحكومة .

بعد أن تسلمت الحكومة في بغداد عبد الكريم عقدت له محاكمة رسمية وأجريت مراسيمها تحت إشراف وتوجيه مدحت حتى صدر حكم الإعدام على عبد الكريم . ثم تقرر ترحيله إلى الآستانة ولكنه ما أن وصل إلى الموصل حتى جاء التصديق بإعدامه سناً ، فنفذ فيه الحكم قرب الموصل في نفس المنطقة التي بدأ منها ثورته (١) .

وإذا كان أمر عبد الكريم قد انتهى على هذه الصورة الدرامية ، فإن أمه عمشة آلت على نفسها أن يستمر أبناؤها في التطوع إلى منصب المشيخة ، وأن يظلوا مخلصين لتقاليد البدو والبادية . وهذا ليس بمستغرب على سيدة — مثل عمشة عاشت معظم حياتها في كفاح متواصل إلى جانب صفوق ثم إلى جانب ابنها عبد الكريم — أن لا تكف عن الكفاح من أجل رفع أحد أبناء صفوق إلى منصب الولاية . ولا شك أنه فقدوا زوجها صفوق على تلك الصورة القادرة ثم إعدام ابنها عبد الكريم جعلها أكثر صلابة في مقاومة الترك عن ذي قبل . فقد أخذت أولاد عبد الكريم وكذلك ابنها فارس إلى جبل ثمر . وهناك ربهم تربية بدوية أصيلة وأرضتهم لبان الكراهية للترك ولفرحان شيخ العشائر .

ولما أصبح فارس بن صفوق فتى من فتيان العرب دفعت به إلى معترك السياسة مطالباً بمشاركة فرحان المشيخة . واستطاع فارس أن يكسب إلى جانبه عدداً من العشائر وبدأ كأن جولة جديدة من الصراع الأسرى بين آل محمد على وشك الوقوع . ولكن الحكومة عملت على الوصول إلى تسوية أرضت الطرفين . فقد اتفقت مع « فارس » على إعطائه مرتباً شهرياً في مقابل هدوء العشائر التي تحت يده . وهكذا أخذت أمور المشيرة في الاستقرار . حقيقة وقعت بعض الأحداث إلا أن هذه الأحداث لم ترتفع إلى المستويات المالية التي مرت بنا أيام « مطلق بن محمد » ،

(١) حيدر مدحت ، نبصرة عبرت ومرتأة حيرت ، استانبول من ١١٠-١١٣ .

المراجع

أولا - وثائق غير منشورة

١ - دار الوثائق الأهلية في عابدين

محفظة ٢٣١، ٢٤٦، ٢٥٧، ٢٥٨.

Commonwealth Relations Library :

- ٢

a) India Office Records, Factory Records, Persia and the Persian Gulf, vols. 47, 49, 51, 54.

b) Political and Secret Department Records :
Letters from Agents at Bagdad, vol. 13-14.

Public Record Office :

- ٣

a) F.O. 78 : 210, 371, 394.

b) F.O. 195 : 803A, 272, 577, 676, 752, 949.

ثانيا - المؤلفات العربية والتركية

١ - جودت باها :

تاريخ جودت ، ج ٧ ، مطبعة عثمانية د ، طبع المصدر ، ١٣٠٢ هـ .

٢ - سر كيس (يعقوب) :

مباحث عراقية . جزءان ١٩٤٨ .

٣ - سند (عثمان) :

مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود . اختصره أمين بن حسن

الحلوانى ، طبع ببي ١٣٠٤ هـ .

٤ - المزاولى (عباس) :

(١) تاريخ العراق بين احتلاين ، بغداد ، ج ٥ (١٩٥٣) ، ج ٦ ،

(١٩٥٤) .

(ب) عشائر العراق ، ج ١ ، بغداد ١٩٣٧ .

٥ - فائق (سليمان) :

تاريخ بغداد ، بغداد ١٩٦٥ .

٦ - فريزر (جيمس بيلي) :

رحلة فريز ، ترجمة جعفر الخياط ، الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف ،
بغداد ١٩٦٤ .

- قرالي (بولس) :

نظر الدين المعنى الثاني ودولة تسكانيا ١٦٠٥ - ١٦٣٥ .

رومية ، مجمع العلوم والفنون الملكي الإيطالي ١٩٣٨ ، الجزء الثاني .

٨ - السكركوكي (رسول)

دعوة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى
كافظم نورس . دار الكتاب العربي بيروت .

٩ - لونكربك (هنري) :

أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة بغداد ١٩٦٢ .

١٠ - مدحت (حيدر)

تبصره عبرت ومرتأة حيرت . استنبول

١١ - نوار (عبد الميز)

(أ) تاريخ العراق الحديث . دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨

(المكتبة العربية) .

(ب) داود باشا وإلى بغداد : دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨

(المكتبة العربية) .

ثالثاً — المؤلفات الأوربية

1. Ainsworth, W.F. :
A Personal Narrative of the Euphrates Expedition (2 vols.), London, 1888.
2. Blunt, Ann :
Bedouin Tribes of the Euphrates, 2 vols., London, 1879.
3. Chesney, F.R. :
Narrative of the Euphrates Expedition, Carried on By Order of the British Government during the Years 1835, 1836, 1837, London, 1868.
4. Groves, A.N. :
Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832.
5. Hoskins, H.L. :
British Routes to India, London, 1928.
6. Jones, J.F. :
Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII, Memoirs, Bombay, 1857.
7. Layard, H. :
a) Nineveh and its Remains. With an Account of a Visit to Chaldaean Christians of Kurdistan, London, 1849, 2 vols.
b) Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, London, 1853.
8. Lorimer J.G. :
Gazetteer of the Persian Gulf, vol. 1, Parts 1-11, Culcutta, Superintendent Government Printing, India, 1908.
9. Ross, H.J. :
Letters from the East 1837-1857. Edited by his wife, London, 1902.
10. Saldanha, J. :
Precis of Turkish Arabia, 1904, (India Office Library).
11. Walpole, R.N. :
The Ansayri or Assassins. Travels in the further East in 1850-1851. Including a Visit to Nineveh, London, 1851.